دار الفاروق
للاستثمارات الثقافية

النماذج الأربعة من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر

الأسس والمقاصد

تأليف
فضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة
مفتي الديار المصرية

النماذج الأربعة

من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر

الأسس والمقاصد

الناشر: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)

العنوان: ١٢ ش الدقي - الجيزة - مصر
تليفون: ٣٧٦٢٢٨٣٠/ ٠٢ - ٣٧٦٢٢٨٣١/ ٠٢ - ٧٦٢٢٨٣٢/ ٠٢/ ٠٠٢ -
٣٧٤٨٠٧٢٩/ ٠٢ - ٣٧٤٩١٣٨٨/ ٠٢
فاكس: ٣٣٣٨٢٠٧٤/ ٠٢

جمعة، علي.
النماذج الأربعة من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر الأسس والمقاصد، تأليف علي جمعة -
ط ٠١ - الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية [ش.م.م]، [٢٠١٢] ١٩٢ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك: ٢-٩٤٠-٤٥٥-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ١٥٦٣٣/ ٢٠١٢
١ - الأخلاق الإسلامية.
أ- العنوان
ديوي: ٢١٢

الطبعة العربية الأولى: ٢٠١٣
www.daralfarouk.com.eg
www.darelfarouk.com.eg

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار الفاروق للاستثمارات الثقافية(ش.م.م) ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم بخلاف ذلك ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية مع حفظ حقوقنا المدنية والجنائية كافة.

النماذج الأربعة

من هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر

الأسس والمقاصد

تأليف

فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي الديار المصرية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة، الصادق البرق، والحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، ونبي الهدى، الذي طهر قلبه وغفر ذنبه وختم به الرسالة رَبُّهُ، خير من وطئ الثرى، من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقًا، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقًا، وعلى آله وصحبه وسلم.

لقد أرسى الإسلام قواعد وأسسا للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه ، بما يضمن تفاعلهم مع الآخر وتواصلهم معه دون تفريط في الثوابت الإسلامية.

وعلى نهج تلك الأسس ووفق هذه الثوابت يمضي المسلمون قدما في رسم الحضارة الإسلامية لمعايشة المستجدات التي تطرأ عبر التاريخ ، كما يظل الرسول ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في كل شيء، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد ترك لنا رسول الله ﷺ أربعة نماذج للتعايش مع الآخر داخل الدولة الإسلامية وخارجها.

الأول نموذج مكة المكرمة، وكان المقام فيها هو مقام الصبر والتعايش كما سنرى تفصيلا.

والثاني نموذج بقاء المسلمين في الحبشة، والمقام فيها مقام الوفاء والمشاركة.

والثالث نموذج المدينة في عهدها الأول، والمقام فيها مقام الانفتاح والتعاون.

والرابع نموذج المدينة في عهدها الأخير، والمقام فيها مقام العدل والوعي قبل السعي.

ولا يخرج بقاء المسلم في مجتمعه وتعايشه مع كافة النظم والأديان عن هذه الصور الأربعة، ومن ثم يجب علينا أن نعي حقائق هذه النماذج، وندرك أنها صالحة للاستفادة منها في كل عصر حسب حاله، وأن بعضها لم يَنْسَخْ بعضا، بل تُنَزِّل أحكامها بحسب الحال، حتى نستفيد من سنة سيدنا رسول الله ﷺ وسيرته على كل حال، إذ هو لنا القدوة والأسوة الحسنة، وقد أقامه ربه تبارك وتعالى في هذه المقامات كلها.

ومن الحقائق التي يجب علينا إدراكها أيضا أن هذه المقامات أصبحت أساسا أصيلا في تكوين شخصية المسلم، وامتدت إلى أعماقه حتى صار الصبر والتعايش والانفتاح والتعاون والوفاء والمشاركة والعدل والوعي بالشأن والزمان، والسعي على بصيرة؛ جزءا لا يتجزأ من تلك الشخصية، بل إن هذه المقامات هي أصل دين الله الذي ارتضاه للبشر عبر العصور وكر الدهور.

وأخرج ابن حبان في صحيحه قال رسول الله ﷺ: «من حكمة آل داود أن يكون المؤمن مدركا لشانه عالما بزمانه».

والذي نحاول أن ننتهي إليه أن النماذج الأربعة في التعايش مع الآخر فردا كان أو دولة هي نماذج قائمة لا يعتريها إبطال أو تعطيل، وواقع وحال الأفراد أو الجماعات هو الذي يحدد للمسلم في هدي أي نموذج يمكن أن يتواصل ويتعاون ويحقق السلام الاجتماعي والتعايش مع الآخر .

وأن الإسلام دعانا إلى التعايش السلمي مع الآخرين حتى يؤدي بدوره إلي تبادل المصالح والأفكار والمنافع وتقوية العلاقات مع الآخر، وقد كان الأمر على هذا الحال منذ فجر الإسلام بين المسلمين وغيرهم، حيث جعل الإسلام علاقة المسلمين بغيرهم قائمة على أسس إيمانية مبنية على قيمة السلام، وبعيدة عن صفة العنف والطغيان.

وقد طبق الرسول ﷺ هذه النماذج في التعامل مع غير المسلمين بالحسنى، فكان يحسن جوارهم، ويؤدي إليهم حقوقهم، ويدعوهم إلى الخير في إطار من الرحمة وحفظ كرامة الإنسان.

والدولة الإسلامية قامت على أساس قوي من حرية **العقيدة والمساواة بين المواطنين، دون** النظر إلي اختلاف الديانات والعرقيات، كما أكدت على **ترسيخ مفاهيم التسامح والوحدة،** والدعوة إلى نشر المقاصد والقيم المشتركة بين بني الإنسان، **ومن ذلك حب الجار وتقديم البر** إليه.

الأول: نموذج مكة المكرمة:

بداية نتفقد حال سيدنا رسول الله ﷺ قبل البعثة فنجده وقد أقامه الله سبحانه وتعالى في هذه المقامات.

كانت مكة في مهد الدعوة الإسلامية تحت سيطرة المشركين من قريش، يغلب على سكانها عبادة الأوثان وممارسة الرذيلة من بغاء وشرب خمر وارتكاب الفواحش، وكانت الأخلاق أيضا في عمومها متدنية، فكان القوي يطغى على الضعيف ويأكل حقه، وكان السيد يقهر من تحت يده من عبيد وإماء ولا يحترم إنسانيتهم، وكان العربي يتعالى على العجمي، وكان الأبيض يفخر على الأسود.

ويصف لنا حالهم جعفرُ بن أبي طالب حينما خطب أمام النجاشي فقال: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ.[1]

---

(١) مسند أحمد: مسند جعفر بن أبي طالب ٤-٢٨٦ رقم (١٧٦٦).

كيف كانت حياة رسول الله ﷺ وأصحابه في هذا الوسط قبل البعثة وبعدها وأثناء نزول الوحي؟

أ- قبل البعثة كان رسول الله ﷺ متعايشا مع قومه متآلفا معهم يقوم بدور اجتماعي فعال ويساهم معهم ويتعاون في أمور البر والخير.

يكشف ذلك ما صرحت به زوجتُهُ وأَخْبَرُ الناسِ به السيدةُ خديجة رضي الله عنها حينما أتاها رسول الله ﷺ يخبرها بأمر نزول الوحي عليه.

قالت: كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.(١)

تَحْمِلُ الْكَلَّ أي تُنْفِقُ عَلَى الضَّعِيفِ وَالْيَتِيمِ.

ب- وتحالف النبي ﷺ مع قبائل من قريش تعاهدوا على نصرة المظلوم قبل البعثة:

فقد تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى حِلْفٍ فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ؛ لِشَرَفِهِ وَسِنِّهِ، وَكَانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنُو الْمُطَّلِبِ، وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى. وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ، وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ، **فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ لَا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلَّا قَامُوا مَعَهُ، وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، حَتَّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلِمَتُهُ.** فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عن هذا الحلف: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ».(٢)

وتبعا لهذا الحلف الذي تمسك به النبي ﷺ أيما تمسك فقد كان يعمل بمقتضاه حتى بعدما عَادَتْهُ قريشٌ وضيقت عليه هو وأصحابَه.

---

(١) البخاري (كتاب التفسير - باب سورة العلق) ٦/ ١٧٣، رقم (٥٠٠٥)، ومسلم (كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) ١/ ١٣٩، رقم (١٦٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٣.

جاء في عيون الأثر: بينا رسول الله ﷺ **جالس في المسجد (أي الكعبة) ومعه من الصحابة** إذا رجل من زبيد يطوف على حِلَقِ قريش حلقةً بعد أخرى، وهو يقول: يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المارة أو يجلب إليكم جلب أو يَحُل بساحتكم تاجر وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم. حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال له ﷺ: «ومن ظلمك؟» فذكر أنه قدم بثلاث أجمال خيرة إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأَجْلِهِ سَائِمٌ، فأكسد عليَّ سلعتي فظلمني، فقال له رسول الله ﷺ: «وأين جمالك؟» قال: هذه هي بالحزورة. فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه، فنظروا إلى الجمال فرأى جمالا حسانا، فساوم ذلك الرجل حتى ألحقه برضاه، وأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيرا باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه. وكل ذلك وأبو جهل جالس في ناحية من السوق ولم يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال له: «إياك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الرجل، فترى مني ما تكره».

فجعل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ.

فأقبل على أبي جهل أميةُ بنُ خلف ومن معه من القوم فقالوا له: ذللت في يد محمد، فإما أن تكون تريد أن تتبعه، وإما رعب دخلك منه. فقال لهم: لا أتبعه أبدا، إن الذي رأيتم مني لما رأيته، رأيت معه رجالا عن يمينه ورجالا عن شماله معهم رماح يشرعونها إلي، لو خالفته لكانت إياها. أي لأتوا على نفسي.(١)

وروي نظير ذلك:

أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له الإِرَاشي ـ بَطْنٌ من خثعم ـ أجمالا، فمطله بأثمانها، فدلته قريش على النبي ﷺ لينصفه من أبي جهل؛ استهزاء برسول الله ﷺ، لعلمهم بأنه لا قدرة له على أبي جهل، وذلك بعد أن وقف على ناديهم فقال: يا معشر قريش من رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام؟ فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي، فقالوا له:

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ١٤٧.

أترى ذلك الرجل. يعنون رسول الله ﷺ، اذهب إليه فهو يعينك عليه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له حاله مع أبي جهل، فخذ حقي منه يرحمك الله. فخرج النبي ﷺ مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد. فخرج إليه وقد انتقع لونه ـ أي تغير وصار كلون النقع الذي هو التراب ـ.

فقال له: أعط هذا حقه. قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له. فدفعه إليه، ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرا. يعني النبي ﷺ، فقد والله أخذ لي بحقي. (١)

ج- وساعد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب قبل البعثة بأن أخذ سيدنا عليا ليربيه له:

وَكَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِمّا صَنَعَ اللهُ لَهُ وَأَرَادَهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ أَنّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبّاسِ عَمّهِ وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: **يَا عَبّاسُ إنّ أَخَاك أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إلَيْهِ فَلْنُخَفّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا.** فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ، فَقَالَ الْعَبّاسُ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا حَتّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ فَقَالَا لَهُ: إنّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفّفَ عَنْك مِنْ عِيَالِك حَتّى يَنْكَشِفَ عَنْ النّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّا، فَضَمّهُ إلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبّاسُ جَعْفَرًا. (٢)

د- وكما تعايش رسول الله ﷺ مع قومه فكذلك تعايش معهم بعد نزول الوحي عليه، وكذلك تعايش أصحابه الأُوَل ممن آمن بدعوته، فلم يتركوا أشغالهم ولم يحبسوا أنفسهم عن الناس وعن التجارة والسفر، ولم يقصروا البيع والشراء على أنفسهم.

وعلى العكس من ذلك فإن المشركين (قريش) هم الذين رفضوا التعايش مع الآخر (المؤمنين) ففرضوا عليهم حصارا في شِعب أبي طالب.

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٥٠٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٥.

ولَمّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنّ الْإِسْلَامَ يَفْشُو فِي الْقَبَائِلِ اجْتَمَعُوا وَائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِيّ الْمُطّلِبِ، عَلَى أَنْ لَا يُنْكِحُوا إلَيْهِمْ وَلَا يُنْكَحُوهُمْ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، فَلَمّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ ثُمّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمّ عَلّقُوا الصّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ثم عَدَوْا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد عليهم البلاء وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالا شديدا.

وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش، فظاهرهم، وتركت خديجة دارها وانتقلت مع رسول الله ﷺ إلى شعب أبي طالب رغم تجاوزها الستين، وظل المسلمون محاصرين في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، فأكلوا ورق الشجر، وسُمِعَ صراخ صبيانهم يتضاغون من رواء الشعب من الجوع. حتى كره عامة قريش ما أصابهم، وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم الظالمة.(١)

هـ - ولم يهجر رسول الله ﷺ الكعبة، بل ظل يذهب إليها ويتعبد فيها لله الواحد قبل البعثة وبعدها، ولم يمنعه وجود الشرك فيها عن ارتيادها.

فقد كانت قريش تَرُصُّ أصنامها داخل الكعبة ومِنْ حولها، وكان عدد الأصنام ثلاثمائة وستين صنما، وظلت هذه الأصنام موجودة حتى عام الفتح الثامن من الهجرة.

فعَنْ عَبْدِ اللهِّ بن مسعود قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ **يوم الفتح وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا**، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: « (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ).(٢)

ورغم تعرض النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام للأذى الشديد من قبل قريش؛ فإن ذلك لم يمنعهم من الإقبال على البيت الحرام والتعبد والصلاة فيه، وقد كان

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٤٧.

(٢) رواه مسلم (كتاب الجهاد والسير - باب إِزَالَةِ الأَصْنَامِ مِنْ حَوْلِ الْكَعْبَةِ).

لسيدنا عمر رضي الله عنه فضل في بداية الإسلام في تمكين من أسلم من الصلاة والطواف بالبيت؛ فعن ابن مسعود قال: والله لقد رأيتنا **وما نستطيع أن نصلى بالكعبة** ـ أى عندها ـ ظاهرين آمنين، حتى أَسْلَمَ عِمر فقاتلهم حتى تركونا، **فصلينا** ـ أى وجهروا بالقراءة ـ وكانوا قبل ذلك لا يقرءون إلا سرا.(١)

وعن صهيب قال: **لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حِلَقًا. فَطُفْنَا وَاسْتَنْصَفْنَا ممن غلظ علينا.**(٢)

وقيل لعمر رضي الله عنه: ما سبب تسمية النبى ﷺ لك بالفاروق؟ قال: لما أسلمتُ والنبى ﷺ وأصحابه مختفون قلت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذى بعثك بالحق لنخرجن.

فخرجنا فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد ككديد الطحين ـ أى لذلك الجمع غبار ثائر من الأرض لشدة وطء الأقدام؛ لأن الكديد التراب الناعم إذا وطئ ثار غباره ـ قال: **حتى دخلنا المسجد**، فنظرت قريش إلي وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، **فطاف ﷺ بالبيت وصلى الظهر معلنا**، ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم، فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، فرق الله بى بين الحق والباطل.(٣)

وقد تحمل رسول الله ﷺ في سبيل ذلك أشد الابتلاءات وأكبر الأذى وأعظم الشدائد؛ فقد سئل ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عن أَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - فقَالَ: بَيْنَا

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤٧٢.

(٢) السيرة الحلبية ٢/ ٢١، الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٢٢٠.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.

النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ) الآيَةَ.(١)

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ ».(٢)

فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أُمَيَّةَ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ، فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبِئْرِ.

وعن خَبَّابٍ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ **وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ**، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ ».(٣)

و – وقد ضرب الإسلام في تلك المرحلة أبدع الأمثلة في التعايش السلمي مع الآخر، حتى في ظل الاضطهاد والتعذيب، فلقد وجد أصحاب رسول الله ﷺ من صنوف العذاب ألوانا على يد مشركي قريش، فكان أمر رسول الله لهم بالصبر وقوة التحمل حتى يجعل الله لهم مخرجًا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، رقم (٣٨٥٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، رقم (٣٨٥٢).

فإن قريشًا عمدوا على من أسلم، ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

ومن نماذج هذا التحمل والصبر بلال بن رباح رضي الله عنه؛ فكان أمية بن خلف يُخْرِجُه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: **أحد أحد**.(١)

وروى البلاذري عن عمرو بن العاص قال: مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى. وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذابا، فيقبل عليه فيدغت في حلقه فيغشى عليه ثم يفيق.(٢)

وروى ابن سعد عن حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: حججت فرأيت بلالا في حبل طويل يمده الصبيان وهو يقول: أحد أحد أنا أكفر باللات والعزى وهبل ونائلة وبوانة. فأضجعه أمية في الرمضاء.(٣)

فمر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوما، وهم يصنعون ذلك به. فقال لأمية بن خلف: أَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذَا الْمِسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى؟ قَالَ أَنْت الَّذِي أَفْسَدْته فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ. أَفَعَلُ عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى، عَلَى دِينِك، أُعْطِيكَهُ بِهِ قَالَ قَدْ قَبِلْتُ فَقَالَ هُوَ لَك. فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه غُلَامَهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ فَأَعْتَقَهُ.(٤)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٧، ٣١٨.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ١٨٥.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ١٨٥.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٧.

ومن نماذج هذا التحمل والصبر عمار بن ياسر ﷺ؛ فقد أَخَذَه الْمُشْرِكُونَ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟ ». قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ. قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟». قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ. قَالَ:« إِنْ عَادُوا فَعُدْ ».(١)

ونزل في شأنه قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل: ١٠٦]

ومن قبل ذلك صبرت أم عمار السيدة سمية على عذاب المشركين حتى مر بها أبو جهل فطلب منها سب النبي فرفضت، فطعنها في حيائها، فاستشهدت، فكانت أول شهيدة في الإسلام، واستشهد كذلك زوجها ياسر.

وكان رسول الله ﷺ يمر عليهم فيأمرهم بالصبر ويبشرهم بالجنة.

يقول: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةَ».(٢)

الثاني: نموذج مجتمع الحبشة:

أما النموذج الثاني من نماذج هدي النبي ﷺ في التعايش والتكيف مع الآخر؛ فيمثله التعايش مع مجتمع الحبشة؛ فكانت الهجرة إلى الحبشة والحياة بين أهلها تطبيقا لوسيلة من الوسائل التي مارسها كثير من الأنبياء قبل سيدنا محمد ﷺ، فلقد قص القرآن الكريم على رسول الله تجارب كثير من الأنبياء السابقين، وكيف أنهم لجئوا إلى الهجرة كوسيلة للنجاة بمن معهم من المسلمين من بطش وتعذيب المشركين لهم.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٨٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٠.

ولكن الفريد في تجربة رسول الله ﷺ سيد المرسلين وقدوة المسلمين إلى يوم الدين أنه أمر أصحابه بالهجرة والفرار بأنفسهم وذويهم من بطش قريش لكنه لم يفكر في الهجرة بنفسه وأهله إلا بعد أن أتم أمرين:

أولهما أنه استنفذ مع قريش كل الوسائل الدعوية لهدايتهم إلى الدين حتى يكونوا أصحاب الفخر والسبق بالإسلام، فإن مكة كانت بلدَه وفيها قومه وأهله.

وثانيهما أنه ﷺ لم يهاجر إلا بعد أن اطمئن على معظم أصحابه وأنهم قد هاجروا واستقروا في المدينة، وأن المدينة قد دخل الإسلام كل بيت فيها وأصبحت موطنا آمنا وملاذا واستقرارا للدين والمؤمنين من أصحابه.

وأما الهجرة إلى الحبشة، فإن الحبشة كانت كمكة مجتمعا غير مسلم، ولكنه كان يكفل للأقلية المسلمة فيه العدل، ويقدم لهم الحماية والحرية الدينية.

وكانت الحبشة مظنة العدل والحماية لكل من يلجأ إليها من المستضعفين وذوي الدعوات النافعة الصالحة، التي تبني ولا تهدم، وتحيي النفوس ولا تفنيها، وهذا ما دعا رسول الله ﷺ أن يأذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

فنموذج الحبشة هو النموذج أو الحالة التي يكون فيها المسلمون أقلية تعيش في مناخ من الأمن والعدل والحرية في ظل دولة غير إسلامية. فكيف كانت حياة الصحابة في الحبشة؟

اشتد بطش مشركي مكة وتنكيلهم بالقلة المسلمة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء من أهل مكة وتعذيبهم عندما أظهروا الإسلام، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكا عظيما لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.**[1]

فخرج قوم، وستر الباقون إسلامهم.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٩/ ٩.

وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، فخرج عند ذلك أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا أحد عشر نفرا وأربع نسوة متسللين سرا، فصادف وصولهم إلى البحر سفينتين للتجار فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من النبوة، وخرجت قريش في آثارهم فقاتلوهم.

وكان أول من خرج عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، **وجعفر بن أبي طالب**، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية، وعبد الله بن مسعود فيمن خرج معهم رضي الله عنهم، فأقاموا عند النجاشي شعبان ورمضان، وقدموا في شوال ولم يدخل أحدهم مكة، **فآذنهم عشائرهم**، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج مرة أخرى، فخرجوا في جماعة من رجال ونساء.

وكان جميع من لحق بأرض الحبشة سوى من وُلِدَ بها وأبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا نيفا وثمانين رجلا وإحدى عشرة امرأة، ولما سمعوا بمهاجرة النبي ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا وثمان نسوة، فمات منهم رجل بمكة وحبس سبعة، وشهد بدرا منهم أربعة وعشرون.

وقد استضاف النجاشي صحابة رسول الله ﷺ خير استضافة؛ فكان خير جار؛ آمنهم على دينهم، ومكنهم من عبادة ربهم؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلاَءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لاَ يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ لاَ يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ** ». **فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالاً حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا فَنَزَلْنَا خَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا.**[1]

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (كتاب السير ـ باب الإِذْنِ بِالْهِجْرَةِ) رقم ١٨١٩٠.

وفي رواية أخرى لأُمّ سَلَمَةَ قَالَتْ: « لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيّ، أَمِنّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ تَعَالَى لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُه ».

وتعكس كلمة جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي هدي النبي ﷺ في مخاطبة غير المسلمين على لسان جعفر؛ فقد اشتمل خطابه على عدة محاور:

المحور الأول: بيان الحالة السيئة التي كان عليها المسلمون قبل بعثة النبي ﷺ، وقد سبق أن ذكرنا حديث جعفر ﷺ عن تلك الحالة في النموذج الأول (نموذج مكة المكرمة).

المحور الثاني: مخاطبة النجاشي بما يقربه ويحببه في الإسلام والمسلمين.

المحور الثالث: عدم التخلي عن الحق وقول الحق، وهو ما سلم به النجاشي ووافقهم عليه.

كلمة جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي:

وكَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصّلَاةِ وَالزّكَاةِ وَالصّيَامِ - قَالَتْ فَعَدّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدّقْنَاهُ وَآمَنّا بِهِ وَاتّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللهِ فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرّمْنَا مَا حَرّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيّهَا الْمَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيّ: هَلْ مَعَك مِمّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيّ. قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ (كهيعص) قَالَتْ: فَبَكَى وَاَللهِ

النّجَاشِيّ حَتّى اخْضَلّتْ لِحْيَتُهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتّى أَخْضَلّوا مَصَاحِفَهُمْ حِين سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ. ثُمّ قَالَ لَهُمْ النّجَاشِيّ: إنّ هَذَا وَالّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. انْطَلِقَا.

قَالَتْ: فَلَمّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاَللّهِ لَآتِيَنّهُ غَدًا عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرّجُلَيْنِ فِينَا: لَا تَفْعَلْ فَإِنّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا؛ قَالَ: وَاَللّهِ لَأُخْبِرَنّهُ أَنّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمّ غَدَا عَلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ: أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمّا يَقُولُونَ فِيهِ. قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ. قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا قَطّ.

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: **نَقُولُ وَاَللّهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ**. قَالَتْ: فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

قَالَتْ فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: **نَقُولُ فِيهِ الّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا ﷺ، هُوَ عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ**. قَالَتْ: فَضَرَبَ النّجَاشِيّ بِيَدِهِ إلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمّ قَالَ: وَاَللّهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ.

قَالَتْ: فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاَللّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالشّيُومُ الْآمِنُونَ - مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ، مَا أُحِبّ أَنّ لِي دَبَرًا مِنْ ذَهَبٍ وَأَنّي آذَيْت رَجُلًا مِنْكُمْ. - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدّبَرُ (بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ): الْجَبَلُ. - رُدّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاَللّهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنّي الرّشْوَةَ حِينَ رَدّ عَلَيّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النّاسَ فِيّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ.

ومما لا شك فيه أن كلمة جعفر رضي الله عنه السابقة إلى النجاشي فيها تعليم للمسلمين في كل زمان ومكان بأن يخاطبوا غيرهم بما يقربه ويحببه في الإسلام والمسلمين، على عكس ما ينهجه بعض

المتشددين في هذا العصر، الذين يلجأون إلى دول غير إسلامية يحتمون بها من أهلهم وذويهم، ويعيشون فيها آمنين، بينما يصرون على رمي أهلها بكل ما من شأنه إيقاع الكره والضغينة في الإسلام والمسلمين، بداية من إبطال أديانهم، وتذكيرهم بكفرهم كل حين، نهاية بالتجهم والتصريح بالكره والعداوة لهم.

فإن ما يفعله هؤلاء من تجاهل لكل معروف أو بر أُمِرْنَا به تجاه الآخر خاصة ونحن نعيش معه في آمان وسلام لا في عداء وحرب، لَيُشَوِّه صورة الإسلام في عقول العالمين، ويحمل سفارة سوء وشؤم للمسلمين في كل مكان، ويُقَدِّم للمتعصبين وأعداء الإسلام من كل دين وفي كل مكان المبررات والمسوغات التي تمكنهم من النفث عن أحقادهم وأضغانهم واضطهاد الإسلام وأهله ومحاربة الدول الإسلامية والطغيان عليها، متعللين بأن هذه الدول إرهابية همجية تسعى لدمار العالم وحضارته الحديثة.

ومن العلامات البينة على اندماج المسلمين مع مجتمع الحبشة فرحهم بنصرة النجاشي على عدوه.

فَرَحُ المُهَاجِرِينَ بِنُصْرَةِ النَّجَاشِيِّ عَلَى عَدُوِّهِ:

قَالَتْ: فَوَاللهِ إِنَّا لِعَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْحَبَشَةِ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ. قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُنَا حَزِنَّا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ؛ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ. قَالَتْ: وَسَارَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ، وَبَيْنَهُمَا عَرْضُ النِّيلِ، قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقِيعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟ قَالَتْ فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا. قَالُوا: فَأَنْتَ. وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا. قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ. قَالَتْ: فَدَعَوْنَا اللهَ تَعَالَى لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ. قَالَتْ: فَوَاللهِ إِنَّا لَعَلَى ذَلِكَ مُتَوَقِّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ إِذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ يَسْعَى، فَلَمَعَ بِثَوْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَلَا أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفِرَ النَّجَاشِيُّ، وَأَهْلَكَ اللهُ عَدُوَّهُ وَمَكَّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتنَا فَرِحْنَا فَرْحَةً قَطّ مِثْلَهَا. قَالَتْ: وَرَجَعَ النّجَاشِيّ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ عَدُوّهُ وَمَكّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكّةَ. (١)

روايات حول مسألة اشتراك المسلمين مع النجاشي في حربه مع عدوه:

١- جاء في المبسوط للسرخسي (١٠/ ١٦٦): قال: وَإِذَا كَانَ قَوْمٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مُسْتَأْمَنِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَأَغَارَ عَلَى تِلْكَ الدَّارِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لَمْ يَحِلَّ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ؛ لِأَنَّ فِي الْقِتَالِ تَعْرِيضَ النَّفْسِ فَلَا يَحِلُّ ذَلِكَ إلَّا عَلَى، وَجْهِ إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعَزَازِ الدِّينِ، وَذَلِكَ لَا يُوجَدُ هَهُنَا؛ لِأَنَّ أَحْكَامَ أَهْلِ الشِّرْكِ غَالِبَةٌ فِيهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَحْكُمُوا بِأَحْكَامِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَكَانَ قِتَالُهُمْ فِي الصُّورَةِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الشِّرْكِ، وَذَلِكَ لَا يَحِلُّ إلَّا أَنْ يَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أُولَئِكَ فَحِينَئِذٍ لَا بَأْسَ بِأَنْ يُقَاتِلُوهُمْ لِلدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الشِّرْكِ.

وَالْأَصْلُ فِيهِ حَدِيثُ جَعْفَرٍ ﷺ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ بِالْحَبَشَةِ مَعَ الْعَدُوِّ الَّذِي كَانَ قَصَدَ النَّجَاشِيَّ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ آمِنًا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِهِ، فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْخَوْفِ.

٢- وجاء في شرح السير الكبير، للسرخسي (٤/ ١٤٢٤)، باب الاستعانة بأهل الشرك واستعانة المشركين بالمسلمين: ذَكَرَ حَدِيثَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ حِينَ كَانَ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَنَزَلَ بِهِ عَدُوُّهُ فَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ مَعَ النَّجَاشِيِّ بَلَاءً حَسَنًا، فَكَانَ لِلزُّبَيْرِ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِهَا مَنْزِلَةٌ حَسَنَةٌ.

فَبِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ يَسْتَدِلُّ مَنْ يُجَوِّزُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَتِهِمْ.

وَلَكِنْ تَأْوِيلُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ عِنْدَنَا: أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّجَاشِيَّ كَانَ مُسْلِمًا يَوْمَئِذٍ، كَمَا رُوِيَ، فَلِهَذَا اسْتَحَلَّ الزُّبَيْرُ الْقِتَالَ مَعَهُ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٤-٣٣٨.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ مَلْجَأٌ غَيْرُهُ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا.

قَالَتْ: لَمَّا اطْمَأْنَنَّا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا فِي خَيْرِ دَارٍ، عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، نَعْبُدُ رَبَّنَا إلَى أَنْ سَارَ إلَى النَّجَاشِيِّ عَدُوٌّ لَهُ، فَمَا نَزَلَ بِنَا قَطُّ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِنْهُ، قُلْنَا: إنْ ظَهَرَ عَلَى النَّجَاشِيِّ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ، فَأَخْلَصْنَا الدُّعَاءَ إلَى أَنْ يُمَكِّنَ اللهُ النَّجَاشِيَّ.

٣- وروى البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٨٦، ٨١، ٢٢٨): قال: أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد رضي الله تعالى عنه، هاجر إلى الحبشة في المرتين جميعا، **وقاتل مع النجاشي عدوا له، فأعطاه العنزة التي صارت إلى رسول الله ﷺ.**

وقال: فحدثني أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة العامري، عن عيسى بن معمر، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، **عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما هاجر الزبير إلى أرض الحبشة، خرج مع النجاشي فقاتل عدواً له، فأعطاه النجاشي يومئذ عنزة فقاتل بها وطعن عدَّةً حتى ظهر النجاشي على عدوه.**

وقدم الزبير بها فشهد بدراً وهي معه.

وشهد بها يوم أحد ويوم خيبر.

ثم أخذها رسول الله ﷺ منه منصرفه من خيبر، فكانت تُحمل بين يديه يوم العيد؛ يحملها بلال بن رباح؛ ويخرج بها في أسفاره فتركز بين يديه يصلى إليها.

وتوفي ﷺ والأمر على ذلك؛ وكان أبو بكر، وعمر، وعثمان رضي الله تعالى عنهم على ذلك. فهي اليوم تحمل بين أيدي الأئمة، وتكون مع المؤمنين المؤذنين.

وقال الواقدي: ويقال إن الزبير بن العوام قاتل بين يدي النجاشي عدوا له، فأبلى، فوهب له العنزة.

٤- وجاء في السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٣): قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ قِيلَ: يُقَاتِلُهُمْ. **قَدْ قَاتَلَ الزُّبَيْرُ وَأَصْحَابٌ لَهُ بِبِلَادِ الْحَبَشَةِ مُشْرِكِينَ عَنْ مُشْرِكِينَ**، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: يَمْتَنِعُ عَنْ

قِتَالِهِمْ لِمَعَانٍ ذَكَرَهَا الشَّافِعِيُّ، كَانَ مَذْهَبًا، وَلاَ نَعْلَمُ خَبَرَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَثْبُتُ، وَلَوْ ثَبَتَ كَانَ النَّجَاشِيُّ مُسْلِمًا، كَانَ آمَنَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ.(١)

وقال البيهقي في معرفة السنن والآثار(١٤/ ٤٦٣): قال أحمد البيهقي: النجاشي كان مسلما كما قال الشافعي، وحديث أم سلمة في قصة الزبير حديث حسن. وكان ذلك قبل نزول هذه الأحكام في الغنيمة والخمس والجزية التي لأجلها استحب الشافعي أن لا يقاتلوا إن لم يستكرهوهم على قتالهم.

وهكذا يتبين لنا إقامة أصحاب النبي ﷺ مع النجاشي وأهل الحبشة في سلام وود واحترام، وتحلى الصحابة بلين الكلام، فالمسلمون احترموا أهل الحبشة، ولم ينكروا عليهم دينهم، ولم يتدخلوا في شئونهم الداخلية، إلا في إطار المساعدة والتعاون والمشاركة والوفاء لجميل إيوائهم وحسن وفادتهم.

ولقد آثر كثير من الصحابة البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

فإنه لما التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة فأكرمهم النجاشي وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش، ولما هاجر رسول الله إلى المدينة، عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا بالنبي ﷺ بالمدينة، **وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي.**

ومن الصحابة الذين آثروا البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة:

أ - جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي وَهُوَ أَسَنُّ مِنْ أخيه عَلِيٍّ بِعَشْرِ سِنِيْنَ، هَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَهَاجَرَ مِنَ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَوَافَى المُسْلِمِيْنَ وَهُمْ عَلَى خَيْبَرَ إِثْرَ أَخْذِهَا.

---

(١) كلام الإمام الشافعي ذكره في الأم (٤/ ٢٤٢)، وفي هذه المسألة يظهر ويتضح أن الواقع الزمني والحال الاجتماعي الذي صيغت فيه المؤلفات والآراء الفقهية الكبرى كان له تأثير في توجيه أو تغليب نموذج من نماذج التعايش في هدي النبي ﷺ على نموذج آخر.

فإن الدولة والحضارة الإسلامية في زمانها الأول كانت في أوج ازدهارها وقوتها، ولقد انشغل الفقهاء المجتهدون حينئذ بالفقه الزمني والذي كان واجب وقتهم ولا غضاضة عليهم في ذلك، ولكن لكل وقت واجبه المنوط بأهل العلم والدراية أن يقوموا بالاجتهاد في مسائله ووقائعه، شريطة ألا يخرجوا عن الإطار الذي وضعه الشرع الشريف ووجد تطبيقه في سيرة النبي ﷺ وسنته وأفعاله وتقريراته.

وكان معه أيضًا أبو موسى الأشعري، قدم المدينة بعد فتح خيبر، وصادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب، فقدموا جميعًا.

وكان معهم أيضًا عتبة بن مسعود الهذلي أخو عبد الله بن مسعود لأبويه.

وكان معهم قهطم بنت علقمة بن عبد الله بن أبي قيس وزوجها سليط بن عمرو.

ب - عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعيد بن سعد بن سهم القرشي السهمي.

ذكره ابن إسحاق وغيره فيمن هاجر إلى الحبشة، **وذكر له شعرا يحرض المسلمين على الهجرة إلى الحبشة، ويصف ما لقوا فيها من الأمن**، فمنه:

يـــا راكبـــا بلغـــا عنـــي مغلغلـــة ... مـــن كـــان يرجـــو لقـــاء الله والـــدين

إنـــا وجـــدنا بـــلاد الله واســـعة ... تنجـــي مـــن الـــذل والمخـــزاة والهـــون

فـــلا تقيمـــوا عـــلى ذل الحيـــاة ولا ... خـــزي المـــمات وعتـــب غـــير مـــأمون

إنـــا تبعنـــا رســـول الله واطرحـــوا ... قـــول النبـــي وغـــالوا في المـــوازين

وفي كتاب البلاذري وفي ذيل الطبراني **أنه مات بالحبشة.**

ج - المطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة أخو عبد الرحمن وطليب ابني أزهر كان المطلب وطليب من مهاجرة الحبشة وبها ماتا جميعًا، وكان خروج المطلب بن أزهر إلى الحبشة مع امرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم.

وولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب.

والمطلب هو ابن عم عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف.

قال الواقدي: هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية فولد له بها عبد الله.

وقال ابن الكلبي: **هاجر هو وولده عبد الله فماتا جميعًا بأرض الحبشة**، وكانت مع المطلب امرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم السهمي.

وقد كان لاندماج مع مجتمع الحبشة وعلاقتهم من النجاشي ثمار استمرت طويلا بعد ذلك، حتى بعد ترك المسلمين للحبشة وهجرتهم إلى المدينة، فمن هذه الثمار:

أ- الرسائل المتبادلة بين رسول الله ﷺ والنجاشي.

ب- المسائل الاجتماعية التي دلت على متانة العلاقة بين المسلمين والنجاشي، ومن ضمن هذه المسائل الاجتماعية:

- خطوبة النجاشي أم حبيبة لرسول الله ﷺ.
- فرح النجاشي بنصر المسلمين في بدر.
- هدايا النجاشي لرسول الله ﷺ.
- فرح الحبشة بقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحفاوته ﷺ بمقدم وفد الحبشة إلى المدينة.
- حديثه ﷺ في بعض الأحيان ببعض ألفاظ الحبشة.

ج- إسلام النجاشي.

د- صلاة الغائب على النجاشي عند موته.

وهذا تفصيل لكل ما سبق:

رسائل النبي ﷺ إلى النجاشي:

إن الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا تحت رعاية النجاشي بنفسه، وتحت نظره، ليرى ما يفعلونه في حياتهم من عبادات ومعاملات، فرأى منهم ما يؤكد صدق كلامهم ودينهم، ثم تبادل النجاشي مع رسول الله ﷺ الرسائل والمكاتبات، دعاه فيها رسول الله إلى الإسلام، فرد عليه النجاشي بحب وتوقير وإقرار بأنه رسول الله حقا، وأنه صادق مصدق، وختم ذلك بمبايعته له.

حمل عمرو بن الضمري رسالتين من رسول الله إلى النجاشي، يدعوه في إحداهما إلى الإسلام، وفي الأخرى يطلب منه أن يزوجه بأم حبيبة.

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصنة، فحملت بعيسى من روحه، ونفخه كما خلق

آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى.

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم، وكتب الجواب للنبي ﷺ وهذا هو:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله. من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركات، الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وأرسلت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله.(١)

خطوبة النجاشي أمّ حبيبة لرسول الله ﷺ:

تَزَوّجَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَاسْمُهَا رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، زَوّجَهُ إيّاهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَهُمَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، **وَأَصْدَقَهَا النّجَاشِيّ عَنْ رَسُولِ اللهِّ ﷺ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَهُوَ الّذِي كَانَ خَطَبَهَا عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ**، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ عُبَيْدِ اللهِّ بْنِ جَحْشٍ الْأَسَدِيّ.(٢)

فرح النجاشي بنصر المسلمين في بدر:

وقد روي أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي رحمه الله، وعلم بها قَبْلَ مَنْ عنده مِنَ المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذا هو قد لبس مسحًا وقعد على التراب

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٤٥.

والرماد، فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟ فقال: إنا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعًا، وأن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أن النبي محمدًا ﷺ بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له: بدر. كثير الأراك، وأن الله تعالى قد هزم أعداءه فيه، ونصر دينه.(١)

علاقة رسول الله والصحابة بالنجاشي:

ومن مظاهر التعايش السلمي وحسن الجوار بين المسلمين والنجاشي:

- ذُكِرَ أن جعفرًا ﷺ وُلِدَ له بأرض الحبشة ثلاثة أولاد: محمد، وعون، وعبد الله. وكان النجاشي قد وُلِدَ له مولود يومَ وُلِدَ عَبدُ الله، فأرسل النجاشي إلى جعفر يسأله كيف أسميت ابنك؟ فقال: عبد الله. **فسمى النجاشي ابنه عبد الله، وأرضعته أسماءُ بنت عميس امرأة جعفر مع ابنها عبد الله، فكانا يتواصلان بتلك الأخوة.**(٢)
- وقال السهيلي: ومن رواية يونس عن ابن إسحاق أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب عليه السلام كان ابنا للنجاشي نفسه، وأن عليا عليه السلام وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين.(٣)

هدايا النجاشي لرسول الله:

أ - عن ابن عباس ﷺ قال: أهدى النجاشي إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها، وبعث إليه بقدح وكان يشرب فيه.

ب - وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أهدى النجاشي إلى رسول الله ﷺ قارورة وكانت أول ما عملت له.

---

(١) الروض الأنف ٢/ ١١٦.

(٢) أبو القاسم السهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٠٣.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ١١٨.

ج - وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: أَهْدَى النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَلْقَةً فِيهَا خَاتَمُ ذَهَبٍ فِيهِ فَصٌّ حَبَشِيٌّ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ، ثُمَّ دَعَا ابْنَةَ ابْنَتِهِ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ فَقَالَ: «تَحَلِّي بِهَذَا يَا بُنَيَّةُ». (١)

د - وعن بريدة بن الحصيب قال: أَهْدَى النَّجَاشِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ سَاذَجَيْنِ أَسْوَدَيْنِ، فَلَبِسَهُمَا وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا. (٢)

فرح الحبشة بقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحفاوته ﷺ بمقدم وفد الحبشة إلى المدينة:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ لَعِبَتِ الْحَبَشَةُ لِقُدُومِهِ فَرَحًا بِذَلِكَ لَعِبُوا بِحِرَابِهِمْ. (٣)

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُمْ، أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ**». يَعْنِي مِنَ الأَمْنِ. (٤)

وردًّا للمعروف والجميل الذي قدمه النجاشي وأهل الحبشة مع المسلمين أثناء إقامتهم معهم، فحينما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك كان يخدمهم بنفسه.

عن أبي قتادة قال: لما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ **فكان يخدمهم بنفسه**، فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: «**إنهم كانوا يكرمون أصحابي وأحب أن أكافيهم**». (٥)

حديثه ﷺ في بعض الأحيان ببعض ألفاظ الحبشة:

وكان رسول الله ﷺ يتحدث مع أصحابه أحيانا ببعض ألفاظ الحبشة، فعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدٍ، وَقَدْ قَدِمَتْ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ

(١) رواه ابن ماجه (كتاب اللباس - باب النَّهْيِ عَنْ خَاتَمِ الذَّهَبِ).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٨٢، رقم (١٣٩٤).

(٣) رواه أبو داود (كتاب الأدب - باب فِي النَّهْيِ عَنِ الْغِنَاءِ).

(٤) رواه البخاري (كتاب المناقب - باب قِصَّةِ الْحَبَشِ).

(٥) أبو عبد الله الأنصاري المصباح المضيء ٢/ ٣٦.

صَغِيرَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُو هَذِهِ؟» فَسَكَتَ الْقَوْمُ قَالَ: «ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ». فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ، فَأَخَذَ احمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا وَقَالَ: «أَبْلِي وَأَخْلِقِي». وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ فَقَالَ: «يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَاهْ». وَسَنَاهْ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ.(١)

إسلام النجاشي:

وروى ابن إسحاق: اجْتَمَعَتْ الْحَبَشَةُ فَقَالُوا لِلنَّجَاشِيِّ: إنّك قَدْ فَارَقْتَ دِينَنَا وَخَرَجُوا عَلَيْهِ. فَأَرْسَلَ إلَى جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ فَهَيَّأَ لَهُمْ سُفُنًا وَقَالَ: ارْكَبُوا فِيهَا، وَكُونُوا كَمَا أَنْتُمْ، فَإِنْ هُزِمْتُ فَامْضُوا حَتّى تَلْحَقُوا بِحَيْثُ شِئْتُمْ، وَإِنْ ظَفِرْتُ فَاثْبُتُوا. ثُمّ عَمَدَ إلَى كِتَابٍ فَكَتَبَ فِيهِ هُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَيَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ.(٢)

صلاة الغائب على النجاشي:

عَنْ جَابِرٍ رضى الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ».(٣)

موقف الفقهاء من هذا النموذج:

نستطيع أن نقول في هذا الصدد أن الفقهاء لم يلتفتوا كثيرا إلى نموذج الحبشة، والسر في ذلك أن الدولة الإسلامية في زمن الفقهاء (والذي يمثل الأولية في زمن الأمة الإسلامية) كانت في أوج ازدهارها وقوتها، ولقد انشغل الفقهاء المجتهدون حينئذ بالفقه الزمني والذي كان واجب وقتهم ولا غضاضة عليهم في ذلك، ولكن لكل وقت واجبه المنوط بأهل العلم والدراية أن يقوموا بالاجتهاد في مسائله ووقائعه، شريطة ألا يخرجوا عن الإطار الذي وضعه الشرع الشريف ووجد تطبيقه في سيرة النبي ﷺ وسنته وأفعاله وتقريراته.

---

(١) رواه البخاري (كتاب اللباس ـ باب الْخَمِيصَةِ السَّوْدَاءِ).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤٠.

(٣) البخاري (كتاب مناقب الصحابة ـ باب موت النجاشي) ٥/ ٥١، رقم (٣٩٢٥).

ولقد سبق ما أوردناه عن الإمام الشافعي في كتابه الأم فيما يتعلق بحكم قتال المشركين في مصلحة مشركين آخرين، وتطبيقه في هذا الصدد على حالة الحبشة.

فإن نموذج أو حالة الحبشة - وهو أن يكون المسلمون أقلية مضطهدة وهاربة من أرض إلى أرض وتعيش في ظروف أمن وعدل وحرية في ظل دولة غير إسلامية - قد يبدو في القرن الثاني أو الثالث الهجري مجرد فرض مستبعد قيامه، وهذا يفسر عزوف الفقهاء في هذه القرون عنه وعدم اعتنائهم به؛ لأنهم لم يستسيغوا وقوعه أو افتراضه؛ لأن الدولة آنذاك كانت دولة قوية وخلافة مزدهرة، ولا يفتح الفقهاء مجالا أو بابا للأفراد أو الجماعات أن تترك القوة إلى الضعف والتمكين إلى اللجوء، فيكون تأصيلهم لأحكام هذا النموذج فيه ذريعة للضعف ، ولكن الزمان قد استدار والواقع قد تغير، وصارت الأمة في حاجة إلى أن تعود لهذا النموذج مرة أخري ، فتتمسك به وتستفيد من سيرة النبي ﷺ وأصحابه، وتهتدي بتطبيق هذا النموذج في واقعها المعاصر حتى تواجه الأمم الأخرى بالتعاون والمشاركة والتسامح مع عدم تفريط في ثوابت دينها ومقاصده.

وعليه فإن الفقهاء كان أكبر ميلهم وتأصيلهم إلى نموذج المدينة الذي تركهم عليه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون، وهو نموذج قوة الدولة والأفراد ومنعتهم.

والذي يحاول هذا البحث أن ينتهي إليه أن النماذج الأربعة في التعايش مع الآخر فردا كان أو دولة هي نماذج قائمة لم تنسخ، وواقع وحال الأفراد أو الجماعات هو الذي يحدد للمسلم في هدي أي نموذج يمكن أن يتواصل ويتعاون ويحقق السلام الاجتماعي والتعايش مع الآخر.

ودور العلماء المجتهدين في عصرنا الحاضر هو التعمق في إدراك هذه النماذج الأربعة وحسن الاستفادة منها باستخلاص الأحكام الفقهية والشرعية التي تحقق للمسلم فردا أو جماعة المصلحة، وتحقق له الأمن والحرية، وتحقق له التوفيق بين القيام بمتطلبات دينه من دعوة للحق ومن تأدية للعبادات والشعائر وبين السلام مع الآخرين وعدم الاصطدام بهم.

ولقد كان هدي النبي ﷺ دائمًا حتى في أحلك الظروف وضغوط الحرب يُعَلِّم أصحابه ويهديهم بأن لا يتمنوا الحرب والصدام بل يسألوا الله العافية. قال ﷺ: «لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا».

أما إذا تكاسل العلماء عن الاجتهاد واكتفوا باجترار اجتهادات فقهاء سابقين اجتهدوا وأحسنوا في تحقيق الرشاد في ظل واقعهم فإن الهوة الموجودة في حياة المسلمين الآن بين بعض الأحكام والواقع والمصلحة ستتسع، وسيقع المسلمون في العنت والمشقة حتى يصيروا في ظل هذه الاجتهادات القديمة متبعين للشرع وسائرين على هديه.

وفي النهاية فإن نموذج الحبشة، والذي ضرب فيه النبي ﷺ والمسلمون الأوائل قدوة شديدة القوة في التعايش مع الآخر، فإن هذا يدعونا للتمسك بهدي النبي ﷺ في كل زمان ومكان، ونطبق كل ما من شأنه ييسر حياة الإنسان وتعايشه مع أخيه الإنسان في سلام وأمن.

وإن هذا لهو السبيل الأقوم لدفع المسلمين إلى الاندماج والتفاعل مع دولهم ومجتمعاتهم المسلمة وغيرها، ويتغلغل المسلمون في أوطانهم ويصبحوا جزءا رئيسا من نسيجها ولا يمثلون نشاذا أو شذوذا فيها، كل ذلك يمكنهم أكثر من التمكين لدينهم والتمسك به وتطبيق تعاليمه، لا على عكس ما يتصور البعض أن هذا الاندماج سيذيب المسلمين في غيرهم ويجعلهم يفرطون في ثوابت دينهم وأصوله، فإن الإسلام هو دين الحق، وهو يعلو ولا يعلى عليه، وهو أبلج وغيره لجلج، فلا يخشى المسلم عليه، بل يفسح له المجال ويترك له العنان، والإسلام وحده قادر على الانتشار والثبوت والظهور على غيره، فقط لا نكون نحن المسلمين عقبة في طريقه.

فإننا في مجتمع اليوم نرى تصرفات ومعاملات بعض المسلمين الخاطئة تُنَفِّر الآخرين من الدين وتمثل حجابًا لحقيقة الإسلام يمنع من اعتناقه أو التقرب إليه مما يوجب على المسلمين أن يرجعوا إلى الالتزام بمبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه القويمة في تعاملاتهم مع الآخر لتكون أفعالهم نورًا يهتدي به الآخرون إلى صراط الله المستقيم.

الثالث: نموذج المدينة في المرحلة الأولى:

وفي هذا النموذج، وفي هذه المرحلة المبكرة من بناء الدولة الإسلامية؛ نجد مجتمعا في طور التشكيل، وحكومة أو سلطة في مهد التكوين، فالأنصار وهم أهل البلاد يزاحمهم المهاجرون، ومنذ فترة قريبة كانت الصراعات والنزاعات بين قبائل وبطون المهاجرين من مكة تعمل عملها، وكذلك كانت هناك نزاعات بين الأوس والخزرج من الأنصار.

فلا بد أن تعمل الدولة على تأليف قلوب الأنصار بعضهم البعض وكذلك المهاجرين ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

وبمجرد أن وصل النبي ﷺ إلى المدينة وبدأ في وضع الأساس لدولته تكونت فئة جديدة ومجموعة مناهضة للدولة وهي المنافقون، يظهرون الموالاة والإيمان ويبطنون العداوة والكيد والمحاربة.

وبالرغم من أن الإيمان دخل كل بيت من بيوت الأنصار إلا أنه ومن الطبيعي في هذه الفترة أن يكون هناك فئة من أهل المدينة يتمسكون بدينهم وشركهم.

هذا بالإضافة إلى فصيل كبير من أهل المدينة من اليهود، لهم كيان متجمع متماسك، ولهم قيادات وحصون وسلاح وعتاد، ولهم تجارات وزراعات دائرة في المدينة وخارجها، وقد لعبوا دورهم المعتاد من الدس والوقيعة بين أهل المدينة من الأوس والخزرج، فقسموا أنفسهم فالبعض يناصر الأوس ويمدهم بالسلاح، والآخر يناصر الخزرج ويمدهم بالسلاح، وهم يستقوون يوما بعد يوم، ويكسبون من رواء تجارة السلاح والمؤون، ويحتفظون بقوتهم في حين تنهار قوة العرب من أهل المدينة.

فكيف تعامل وتعايش رسول الله ﷺ وأصحابه مع هذه الأصناف؟

أولاً: بناء المسجد والمؤاخاة:

كان أول ما فعله رسول الله ﷺ في المدينة أن حدد موقعا ودعى الجميع إلى الالتفاف حول مشروع ضخم كبير وهو بناء المسجد، ومثل ذلك كان من شأنه أن يوحد صفهم ويجعل منهم

فريقًا واحدًا بنَّاء، يتطلع ويأمل في بناء حضارة ودولة وتاريخ، وكان من شأنه أن يشعرهم بالنصر، وأنهم أصبحوا كيانا منتصرا وأمة واحدة.

والمسجد سيكون المكان الذي يجتمع فيه المسلمون بفئاتهم المختلفة، فيحدث نوع من التآلف والتوحد والمشاركة بينهم، وسيكون مقرا للحكم بينهم والقضاء في نزاعاتهم، ومدرسة يتعلمون فيها الدين والأخلاق والنظام، هذا بالإضافة إلى أنهم سيلتفون حول قائدهم ونبيهم سيدنا رسول الله ﷺ ويؤدون شعائر الإسلام.

ثم واجه النبي ﷺ المشكلة الاقتصادية التي وقع فيها المسلمون، فنصفهم تقريبا قدم من مكة وترك ماله وتجارته وبيته، وجاء إلى المدينة بلا مأوى ولا أهل، وعلى الرغم من أن المسجد أوجد حلا لجزء من هذه المشكلة بشكل سريع حيث وفر المسكن لبعض المهاجرين، وكانوا يسعون أو تأتيهم بعض المساعدات للغذاء، إلا أن رسول الله ﷺ وجد هذا الحل غير مرضي، وسيجعل المهاجرين عالة في المسجد ينتظرون أن يسعى غيرهم عليهم إما أن يعطي وإما أن يبخل، وستسوء حالتهم النفسية والخلقية، فأمر رسول الله بالمؤاخاة، بمعنى أن يتخذ كل أنصاري أخا له من المهاجرين، يأويه في منزله، ويعمل معه في تجارته أو حقله، وبذلك يلزم كل أنصاري بأن يوفر لأخيه المأوى والعمل، وقد أسهم ذلك في سرعة تدريبهم على العمل في المدينة، ومعرفتهم بدروب الرزق فيها، فاعتمد المهاجرون على أنفسهم، وأصبحت لهم تجارتهم ومسالكهم التي أغنتهم.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالاً، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ. فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ[1]، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ يَسِيرًا، حَتَّى جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ

(١) الأَقِطُ: لَبَنٌ مُجَفَّفٌ يُطْبَخُ بِهِ كَالزُّبْدِ.

وَعَلَيْهِ وَضَرٌ[١] مِنْ صُفْرَةٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَهْيَمْ[٢]». قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ «مَا سُقْتَ فِيهَا». قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».[٣]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ؛ لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ، مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ، وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ.[٤]

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُمْ[٥] وَأَنْ يَفْدُوا عَانِيَهُمْ[٦] بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.[٧]

وقالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «تَآخَوْا فِي اللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: هَذَا أَخِي. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ وَرَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ خَطِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ مِنْ

---

(١) وَضَرٌ: أَثَرٌ مِنْ طِيبٍ لَهُ لَوْنٌ يَضَعُهُ مَنْ دَخَلَ عَلَى زَوْجَةٍ.

(٢) مَهْيَمْ: مَا شَأْنُكَ؟

(٣) البخاري (كتاب مناقب الأنصار ـ باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار) ٥/ ٣١، رقم (٣٨٢٧).

(٤) الترمذي (كتاب صفة القيامة ـ باب ٤٤) ٤/ ٦٥٣، رقم (٢٤٨٧). قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٥) يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُمْ: يَشْتَرِكُوا فِي أَدَاءِ الدِّيَةِ.

(٦) يَفْدُوا عَانِيَهُمْ: يَشْتَرِكُوا فِي فِدَاءِ الأَسِيرِ.

(٧) مسند أحمد ٤/ ٢٥٨، رقم (٢٤٤٣).

الْعِبَادِ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَخَوَيْنِ، وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، أَسَدُ اللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ ﷺ وَعَمّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَوَيْنِ، وَإِلَيْهِ أَوْصَى حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ حَيْنَ حَضَرَهُ الْقِتَالُ إِنْ حَدَثَ بِهِ حَادِثُ الْمَوْتِ. وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو الْجَنَاحَيْنِ الطّيّارُ فِي الْجَنّةِ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، أَخَوَيْنِ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمئِذٍ غَائِبًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ.

وَبِلَالٌ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما، مُؤَذّنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبُو رُوَيْحَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ الْخَثْعَمِيّ أخوين.(١)

وهل استمرت هذه الأخوة فيما بعد؟

الجواب نعم فقد ورد أنه لَمّا دَوّنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ الدّوَاوِينَ بِالشّامِ، وَكَانَ بِلَالٌ قَدْ خَرَجَ إِلَى الشّامِ، فَأَقَامَ بِهَا مُجَاهِدًا، **فَقَالَ عُمَرُ لِبِلَالٍ: إِلَى مَنْ تَجْعَلُ دِيوَانَك يَا بِلَالُ؟ قَالَ: مَعَ أَبِي رُوَيْحَةَ لَا أُفَارِقُهُ أَبَدًا، لِلْأُخُوّةِ الّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَقَدَ بَيْنَهُ وَبَيْنِي**، فَضَمّ إِلَيْهِ وَضُمّ دِيوَانُ الْحَبَشَةِ إِلَى خَثْعَمَ، لِمَكَانِ بِلَالٍ مِنْهُمْ، فَهُوَ فِي خَثْعَمَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ بِالشّامِ.(٢)

ثانيًا: توقيع وثيقة دستور المدينة وموادعة اليهود:

وقبل أن نتعرض بالتفصيل للوثيقة التي وضع فيها رسول الله ﷺ تفاصيل دستور المدينة سنلحظ ملاحظة مبدأية لا تخلو من دلالة تعكس مسألة التعايش بين المسلمين واليهود، وهي أن الذي بشر الأنصار في المدينة بقدوم سيدنا رسول الله ﷺ كان يهوديا.

يحكي الأنصار قالوا: لَمّا سَمِعْنَا بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكّةَ، وَتَوَكّفْنَا قُدُومَهُ كُنّا نَخْرُجُ إِذَا صَلّيْنَا الصّبْحَ إِلَى ظَاهِرِ حَرّتِنَا نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، **فَوَاَللهِ مَا نَبْرَحُ حَتّى تَغْلِبَنَا الشّمْسُ عَلَى**

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس: ١/ ٢٣١ – ٢٣٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٤-٥٠٧.

الظَّلَالِ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ ظِلًا دَخَلْنَا، وَذَلِكَ فِي أَيَّامٍ حَارَّةٍ. حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَلَسْنَا كَمَا كُنَّا نَجْلِسُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ دَخَلْنَا الْبُيُوتَ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَآهُ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَقَدْ رَأَى مَا كُنَّا نَصْنَعُ وَأَنَّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا بَنِي قَيْلَةَ، هَذَا جَدُّكُمْ قَدْ جَاءَ.

قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، وَأَكْثَرُنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَكِبَهُ النَّاسُ وَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ.(١)

كتابة وثيقة دستور المدينة:

منذ عقود عديدة والعالم كله يسعى بدوله ومؤسساته ومنظماته إلى تحديد الأسس والقواعد التي تنظم حقوق الأفراد وواجباتهم، وترسم حدود العلاقات البينية بين الأفراد من جهة وبينهم وبين الدولة ومؤسساتها وهيئاتها من جهة أخرى، وهو ما يمكن تسميته «بالحق في المواطنة»، ومفهوم «حق المواطنة» يقوم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات ، دون النظر إلى الانتماء الديني أو العرقي أو المذهبي أو أي اعتبارات أخرى، فالاعتبار الوحيد هنا هو الإنسانية والمواطنة.

ولقد عرف الإسلام هذا الحق ورسخه منذ أربعة عشر قرنا حينما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وتكونت أول دولة إسلامية، وجد رسول الله ﷺ المدينة تضم عقائد مختلفة وقبائل شتى ، فالعقائد كانت الإسلام واليهودية والشرك ثم ما لبث أن ظهر النفاق، ثم انضم بعد ذلك إلى الدولة الإسلامية جماعات من النصارى، والقبائل كانت الأوس والخزرج، وانقسم أيضا المسلمون إلى قسمين كبيرين: المهاجرين والأنصار.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٢.

وفي ظل ذلك التنوع أراد الرسول ﷺ أن يؤسس دولة قوية يسودها السلام والتعاون والمشاركة بين جميع أطيافها على مختلف مشاربهم.

فوضع رسول الله ﷺ وثيقة المدينة كأول دستور للدولة المدنية في العالم، يحدد ملامح دولة الإسلام الجديدة، لا يفرق بين مواطنيها من حيث الدين أو العرق أو الجنس، فأكد أن أطراف الوثيقة عليهم النصر والعون والنصح والتناصح والبر من دون الإثم، وحرصت الوثيقة على أن يكون الدفاع عن حدود هذه الدولة مسئولية الجميع، مؤكدة روح المساواة والعدل والتعاون والتعايش السلمي بين أطرافها .

كِتَابُهُ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمُوَادَعَةُ يَهُودَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، **وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ.**

وتعتبر صحيفة المدينة أول دستور ينظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، حيث اعتمد الرسول ﷺ في الوثيقة مبدأ المواطنة، ووضعت فيها الحقوق والواجبات على أساس المواطنة الكاملة التي يتساوى فيها المسلمون مع غيرهم من ساكني المدينة المنورة ومن حولها، وفي ظل التنوع الديموغرافي الذي ساد المدينة حينذاك، كان اليهود أبرز هذه الفئات؛ ولذا فقد ذكرهم الرسول في أكثر من بند من هذه الوثيقة، حيث أكد في الوثيقة أن اليهود من مواطني الدولة الإسلامية، وعنصرا من عناصرها؛ فقال في الصحيفة : «**وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم**»، كذلك قال: «**وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين**».

وفي هذا الدستور الحقوقي الأول من نوعه في التاريخ نرى أن الإسلام قد عد الآخرين- خاصة أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه - مواطنين ، وأنهم أمة مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم ، فاختلاف الدين ليس سببا للحرمان من مبدأ المواطنة.

إن هذه الوثيقة أول دستور مكتوب في التاريخ يعترف بحقوق المواطنة لجميع سكان الدولة باعتبارهم : «**أمة من دون الناس**». فهم جميعا شركاء في نظام سياسي واحد يضمن لهم

حقوقا متساوية، ويستظلون بحماية الدولة، مقابل أدائهم واجباتهم في الدفاع عنها، لذا فقد وقع على هذه الوثيقة سكان المدينة كلهم ، ورضوا بها دستورا حاكما بينهم ، لما وجدوه بها من عدل ومساواة.

فسبقت المدينة غيرها من مناطق العالم ومدنه في تحقيق دولة مدنية قوية، تضمن حقوق المواطنة وتنمي شعور الهوية والانتماء لدى أفرادها، وتنير العالم بنظامها المدني الحديث، ودعوتها الدينية السامية، فكانت بحق أنموذجا لدولة القيم والأخلاق والدستور والمواطنة .

فبعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة بإقامة الوحدة بين المسلمين، بدأ بتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة، حتى يتحقق للجميع في المجتمع التعايش والأمن والاستقرار، وكان اليهود هم أهم وأكبر الجماعات الموجودة في المدينة التي يجب أن توضع نقاط محددة ومتفق عليها بينهم وبين المسلمين في تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والتجارية وغير ذلك.

وضعت صحيفة المدينة على أسس واضحة وبديهية من العدل والمساواة والحرية، وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود، وأهم ما يميز هذه المعاهدة أنها كانت مفتوحة لكل من يريد الانضمام إليها والمعاملة بما نصت عليه، وأنها كانت معاهدة بالخيار، بمعنى أنه لم يكن اليهود مجبرين على التوقيع عليها والإقرار بما فيها.

بنود الوثيقة (المعاهدة بين المسلمين وغيرهم):

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَشَرَطَ لَهُمْ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ، الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ بينهم. وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وَبَنُو عَوْفٍ كذلك، وَبَنُو سَاعِدَةَ وَبَنُو الْحَارِثِ وَبَنُو جُشَمٍ وَبَنُو النَّجّارِ وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا[1] بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ.

وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ.

وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ.

وَإِنّ ذِمّةَ اللهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ موالي بعض دُونَ النّاسِ.

وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ.

وَإِنّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ إلّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ.

وَإِنّ كُلّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ - أي يمنع ويكف - بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ.

وَإِنّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسَهَا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ.

وَإِنّهُ مَن اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيّنَةٍ فَإِنّهُ قَوَدٌ بِهِ، إلّا أَنْ يَرْضَى وَلِيّ الْمَقْتُولِ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافّةٌ، وَلَا يَحِلّ لَهُمْ إلّا قِيَامٌ عَلَيْهِ.

---

(١) الْمُفْرَحُ: الْمُثْقَلُ بِالدّيْنِ وَالْكَثِيرُ الْعِيَالِ.

وَإِنَّهُ لَا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.

وَإِنّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ، وَإِلَى مُحَمّدٍ ﷺ.

وَإِنّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ.

وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ.

لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِيْنِ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ، وَأَنْفُسُهُمْ، إِلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إِلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي النّجّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ..... وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إِلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح وَالنّصِيحَةَ وَالْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ.

وَإِنّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ، وَإِنّ النّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.

وَإِنّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ.(١)

تحليل الوثيقة:

- في النص السابق تحديد من رسول الله ﷺ لنطاق الدولة جغرافيا، وأن المواطن منتم إلى هذا النطاق يحرم عليه الاعتداء على من فيها، ويحرم على من فيها الاعتداء عليه.

---

(١) ولقد تعرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٢٧٥) لدراسة طرق ورود الوثيقة وقال: ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة.

وبين الدكتور أكرم أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها، لأن نصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردا أو جماعة، أو تخص أحدا بالإطراء أو الذم. وهناك تشابه كبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ ورسائله.

وَإِنّ الجَارَ كَالنّفْسِ غَيْرَ مُضَارّ وَلَا آثِمٌ، وَإِنّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا.

وَإِنّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَإِنّ اللهَ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ.

وَإِنّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا.

- يقرر فيه رسول الله ﷺ أصلاً وقاعدة للتعايش السلمي بين أهل هذه الصحيفة، وهو قطع أي تعاون عسكري مع أعداء الوطن ومعاونيهم وحلفائهم في الظلم .

وَإِنّ بَيْنَهُمُ النّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، وَإِنّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلّا مَنْ حَارَبَ فِي الدّينِ، عَلَى كُلّ أُنَاسٍ حِصّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمْ الّذِي قِبَلَهُمْ.

- ينص النبي ﷺ على مبدأ أصيل من مبادئ المواطنة؛ وهو وجوب الدفاع عن الوطن، كما ينص على أن النصر يكون دائما في حال الحق والعدل ، لا في حال الظلم والإثم، فلا يَعْطِي حقُّ المواطنة للمواطنِ حقَّ البراءة إذا ظلم أو أثم؛ لأن الدين الإسلامي يناصر الحق ويقف بجواره، وينهي عن الباطل ويواجهه.

وَإِنّ الْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ، لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلّا عَلَى نَفْسِهِ.

وَإِنّ اللهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ.

وَإِنّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَآثِمٍ.

وَإِنّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ، وَإِنّ اللهَ جَارٌ لِمَنْ بَرّ وَاتّقَى، وَمُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

- ينص رسول الله ﷺ على الحرية، الحرية الكاملة للإنسان، والحرية الكاملة لمن انضم إلى هذه الصحيفة، والحرية يعني الأمن في اتخاذ القرار الشخصي، الحرية يعني عدم الاضطهاد أو الاعتداء على الإنسان مهما اتخذ من قرارات تتعلق بشخصه ولا تمس الآخرين بسوء أو ضرر.

فالإنسان حر في انتقاله من المدينة، وحر في إقامته فيها، ينعم بما ينعم به أهلها من حقوق، ويتحمل مثل ما يتحملون من المسئوليات والواجبات، له ما لهم وعليه ما عليهم، لا يمسه ضرر أو خوف في أية حالٍ ارتضى لنفسه، لن يرغم على الرحيل، ولن يُؤْثِرَهُ بناءً على خوف أو اعتداء يصيبه، فيرجح عنده أحد الاختيارين، ولكنه آمن، وأمنه متساوٍ في كلا الحالتين الإقامة والرحيل.

فهذا هو التعايش السلمي على مبدأ المساواة والحرية، فلا يجبر الإنسان على الإقامة أو الانتماء إلى مجتمع أو دولة لا يرضاها ولا يحبها ولا يشعر بهويته فيها، وكذلك لا يجبر إنسان على ترك وطنه ومجتمعه الذي نشأ فيه وتأصلت فيه جذوره أو يحرم من الانتماء إليه والانتساب إلى هويته وتاريخه.

- وما أبلغ كلمة رسول الله ﷺ «**فهو آمن**». فهي كلمة عامة وشاملة يندرج تحتها: فهو آمن على نفسه، وآمن على عرضه، وآمن على كرامته ومساواته الإنسانية بالآخرين وعدم تمييزه أو نبذه بناء على عرقه أو لونه أو دينه أو جنسه، وآمن على أهله، وآمن على ماله، وآمن على دينه ومعتقده، وآمن على ممارسة شعائره التعبدية، وآمن على سكنه، وآمن على دار عبادته.....إلى غير ذلك، فكل ما من شأنه أن يخل بأمن هذا الإنسان فهو تفريط في أمر رسول الله ﷺ بتأمينه، ويعد نقضا لهذا النص الدستوري الحكيم المحكم.

وما سبق هو أمن الإنسان حال إقامته داخل الدولة أو المجتمع الإسلامي، وأما أمنه في حالة خروجه منه ورحيله عنه، وانضمامه إلى معسكر آخر ربما يكون معسكر سلم وربما يكون معسكر حرب، فكيف يكون آمنا؟ يكون آمنا في رحلته وطريقه إلى أي مكان شاء، يكون آمنا في أن يأخذ أهله وذويه وأبناءه فلا يحجزون أو يمنعون من اللحوق به أو الرحيل معه، وكذلك يكون آمنا في أخذ كل ما أراد من ممتلكاته وأمواله، لا يصادر منها شيء حتى وإن كان سلاحا أو مالا تأكد للمسلمين أنه سيمد به أعداءهم في المعركة أو الحرب الدائرة بينهم، وذلك أنه لم يستخدم هذا السلاح في وجه المسلمين طالما كان مقيما بينهم، وأنه اختار الرحيل عن مجتمعهم بسلام وأمن لم يعتد على أحد منهم.

أما في بعض الحالات كحالة بنو النضير مثلا، فإنهم أقروا بالوثيقة النبوية، واختاروا أن يقيموا في المدينة مع المسلمين في حالة التعايش السلمي والمواطنة، ثم بعد ذلك نقضوا ما تعاهدوا عليه، وخالفوا نصوص الدستور التي ارتضوا بها؛ فقد امتنعوا ورفضوا مساعدة النبي ﷺ والاشتراك مع المسلمين في دفع دية الرجلين الْعَامِرِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ.

[وقد كانت هناك معاهدة خاصة أو وثيقة بين النبي ﷺ وبين بني النضير من اليهود خاصة، تنص على المشاركة والمساعدة في دفع الديات، وكانت هناك عقود وأحلاف بين بني عامر وبين بني النضير، ودفع دية القتيلين يهدئ النفوس ويديم هذا الحلف التجاري الذي يعود فضله وخيره على بني النضير].

ثم تآمر بنو النضير على قتل رسول الله ﷺ غيلة، حينما دعوه إلى مساكنهم ودبروا أن يطرحوا عليه ﷺ صخرة كبيرة من فوق أحد حصونهم التي كان ﷺ يقف تحتها.

فما كان من رسول الله إلا أن نبذ إليهم عهد السلم، وأعلمهم أنه بالقوة سيتصدى لتمردهم وعصيانهم وتعاليهم على الالتزام بالدستور والإذعان للسلطة الأولى في المدينة، فأصروا على مواجهة المسلمين عسكريا فتحصنوا بحصونهم المنيعة وجهزوا النبل والأسلحة، فحاصرهم رسول الله ﷺ إلى أن قذف الله في قلوبهم الرعب والهزيمة وأخرجهم من حصونهم يسألونه العفو عنهم وعدم معاقبتهم ويطلبون الخروج من المدينة والجلاء عنها.

موضع الشاهد: أن بنو النضير استسلموا وطلبوا الرحيل عن المدينة بعد كل ما ذكرناه، وعلى الرغم من ذلك فإن رسول الله ﷺ عفى عنهم وتجاوز عن جرائمهم، وسمح لهم بالخروج والجلاء عن المدينة رغم علمه ويقينه أنهم سينضمون إلى التجمع الأكبر من أعدائه اليهود في خيبر، وأذن لهم أن يأخذوا كل ما حملت إبلهم أي كل ما استطاعوا من أموالهم وأثاثهم **إلا الحلقة**. يعني إلا السلاح، فلم يأذن لهم رسول الله ﷺ أن يأخذوا السلاح الذي استخدموه في مواجهة المسلمين والاعتداء عليهم أو محاولة فرض رغباتهم بالقوة.

فهناك فرق واضح بين الحرية في اختيار الجلاء والرحيل عن الوطن في أول نشأته أو قيام سلطة به، وبين الرحيل والجلاء عنه بعد الاعتداء عليه والعصيان والتمرد على سلطته ومحاولة استخدام القوة والسلاح في فرض إرادة فئة معينة فيه على إرادة الجماعة. وهذا ما نص عليه رسول الله ﷺ من استثناء فقال: «**إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ**».

- **أما العدالة في هذه الوثيقة:** فقد تمثلت في توافق الحقوق والواجبات وتناسقها، فإنها تضمنت حقوق الأفراد جميعا في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم.

وسنلحظ في هذا الصدد أن وثيقة النبي ﷺ بين أهل المدينة قامت على أربعة محاور:

الأول: **التعايش السلمي بين الجميع، وتوفير الأمن للجميع** قال:

«أنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى».

وقال: «وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم».

الثاني: **المحافظة على الحرية الدينية للجميع** قال:

«وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم».

الثالث: **إعطاء الفرصة للجميع في المشاركة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بصورة عادلة.**

الرابع: **إقرار مبدأ المسئولية الفردية، وأصل هذه المسئولية هو الإعلان عن النظام، وأخذ الموافقة عليه،** جاء فيها:

«أنه لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره. وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم».

فقه الوثيقة:

١- حددت الوثيقة مفهوم الدولة التي تضم جماعة من الناس ينتمون إلى أديان مختلفة وثقافات مختلفة وأعراق مختلفة وتجمعوا من أماكن مختلفة.

٢- حلت الوثيقة تشابك العلاقات الإنسانية، فهناك علاقة القرابة والدم وهناك علاقة الدين وهناك علاقة الجوار وهناك علاقة المصالح المشتركة، فإن عاشت هذه العلاقات جميعها في وئام وتوافق استطاع الإنسان أن يحقق التعايش والسلام الاجتماعي.

٣- اعتبرت الوثيقة اليهود من مواطني الدولة الإسلامية وعنصرا من عناصرها.

قالت: وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.

فرابطة الدين لا تتعارض مع رابطة المواطنة، بل إن رابطة المواطنة وما تُلْزِمُنَا به من احترام للآخر وتقدير لخصوصياته ودينه وعقيدته يوجبُها علينا الدين.

٤- الاحتكام والمرجعية في الدولة الإسلامية يجب أن يكون لله ولرسوله.

قالت: **وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ.**

وهذا الاحتكام توجبه عدة أمور:

أولاً: نص المعاهدة على ذلك، فعلى من يوقع على هذه الوثيقة أن يلتزم بما فيها، والنص على المرجعية وتحديد مصدر القضاء والفصل بين الناس لازم من لوازم التعايش، ولولا النص على ذلك في دستور الجماعة لحدث الصراع والخلاف بين الناس عند كل حادثة، فمن يحكم فيها ومن يكون حكمه لازم ومنفذ على الجميع سوف تكون معضلة عند كل حادثة تحول دون الفصل فيها وإنهائها.

ثانيًا: إن تحول معظم سكان المدينة إلى الإسلام ودخولهم في طاعة الشرع وطاعة رسول الله ﷺ والنزول على حكمه والرضى به، يجعل من المنطقي أن يكون رسول الله ﷺ هو المرجعية لكل أهل المدينة والحاكم فيما يحدث من شجار أو اعتداء يكون طرفاه من أهل الوثيقة.

ثالثًا: أنزل الله عز وجل على رسوله قانونًا واضحًا ثابتًا منصوصًا عليه، يمكن للجميع معرفته، والنظر فيما إذا كان احتكامه على وفقه وبمقتضاه سيحقق له العدل والمساواة أم لا.

أما اليهود فإن ديانتهم مغلقة، وكتابهم يكاد يكون سري لا يعلمه كثير من أهله، وشريعتهم باد كثير من أحكامها، وإنما فيها بعض العبادات.

ومن البين أن اليهود لن يُلْزَمُوا بمقتضى هذه المعاهدة أن يرجعوا إلى قضاء رسول الله ﷺ وحكمه إلا فيما يحدث من خلاف أو اشتجار بينهم وبين المسلمين، وأما الفصل فيما بينهم في قضاياهم وأحوالهم الشخصية المنصوص عليها في دينهم، فإنهم مخيرون لهم أن يحتكموا

إلى التوراة ويقضوا بما فيها، يتولى الفصل في ذلك كبيرهم أو حبرهم، ولهم أن يحتكموا إلى رسول الله ﷺ ويقبلوا بحكمه ويلتزموا به.

قال تعالى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة المائدة: آية ٤٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ قَالَ: كَانَ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا قَتِيلاً مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَدَّوْا إِلَيْهِمْ نِصْفَ الدِّيَةِ وَإِذَا قَتَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قَتِيلاً أَدَّوْا إِلَيْهِمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً. فَسَوَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً.

فإن بني النضير وبني قريظة اختلفوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم في دية القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف وطالبت بالمساواة في الدية، فنزلت الآية: ﴿ وَكَتَبْنَا فِيهَا عَلَيْهِمْ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة المائدة: آية ٤٥]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - عَلَى جَارِيَةٍ، فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا وَرَضَخَ رَأْسَهَا، فَأَتَى بِهَا أَهْلُهَا رَسُولَ اللهِ - ﷺ - وَهْيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ، وَقَدْ أُصْمِتَتْ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: « مَنْ قَتَلَكِ؟ فُلاَنٌ ». لِغَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لاَ، قَالَ فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا، فَأَشَارَتْ أَنْ لاَ، فَقَالَ: « فَفُلاَنٌ ». لِقَاتِلِهَا فَأَشَارَتْ أَنْ نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَرُضِخَ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ.(١)

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا:

(١) رواه البخاري (كتاب الطلاق ـ باب الإِشَارَةِ فِي الطَّلاَقِ وَالأُمُورِ).

نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا. (١)

٥- إن وثيقة المدينة، بالنسبة لنا، ليست فقط مجرد معاهدة بين المسلمين واليهود في المدينة في عهد رسول الله ﷺ، ولكنها بمثابة دستور شرعي ومنهاج نبوي، حَمَّلَهُ النبي ﷺ من القواعد والمبادئ العامة التي تخرج به عن نطاق المعاهدة الخاصة، فهي قواعد تمثل المقاصد الكلية للشرع والدين الإسلامي، مقاصد تحقق العدالة والمساواة التامة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

أ - فهي تؤكد على حق كل إنسان سواء كان في الجوار أم لا، سواء كان داخل في المعاهدة أم لا، فإنه إنسان له الحق أن ينعم **بالكرامة الإنسانية** التي وهبها المولى عز وجل لجنس الإنسان حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

جاء في الصحيفة: «**وَإِنّ الْجَارَ كَالنّفْسِ غَيْرَ مُضَارّ وَلَا آثِمٌ**».

فالمحافظة على الجار واحترام حقوقه وحمايته من الشر تجب على أهل هذه الوثيقة كما يجب حفظ النفس ورعاية حقوقها.

ب ـ وأقرت الوثيقة مبدأ المساواة، وأن ذمة الله واحدة، فمن أعطاها فهي محترمة من كل المؤمنين، سواء كان من أعطاها أعلاهم قدرا ومنزلة أو أدناهم.

قالت: «**وَإِنّ ذِمّةَ اللهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ**».

وقالت: «**وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ**».

وقد عَلَّمَ رسول الله ﷺ أصحابه مبدأ المساواة في الإنسانية في كثير من أحاديثه.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المناقب ـ باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». (١)

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ ﷺ أنه سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ». قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا». قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ: « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ». قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا». قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَبَلَّغْتُ». قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ». (٢)

ج ـ ونصت كذلك الوثيقة على مبدأ الحرية في الاعتقاد والتعبد، حيث قالت: «لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ، وَأَنْفُسُهُمْ، إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ ».

وهذا تطبيق لما نص عليه القرآن الكريم حيث قال: ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

د ـ ونصت الوثيقة في بدايتها على أنه على كل طائفة أن تتحمل المسئولية المادية عن أتباعها، فهي تتحمل فداء أسيرها، وهم يشتركون في معاقلهم.

ولا تلزم الصحيفة طائفة أن تساعد أو تدفع من مالها لغيرها لا في عقل ولا في فداء، ولكن الصحيفة ألزمت الجميع تحمل مسئولية التضامن الاجتماعي والتكافل فيما بينهم، لأن القاعدة تقول: **إِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ.**

فالوثيقة لا تلزم طائفة من المؤمنين أن يتحملوا المسئولية المادية عن طائفة أخرى ولكن الإيمان يوجب ذلك، فالمؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم دون أن يساعدوه ويعاونوه.

وهذه القاعدة ذكرها رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة منها:

---

(١) البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا).

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم (٢٤٢٠٤).

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.(١)

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».(٢)

هـ ـ ثم وضعت الوثيقة دعائم العدل، فالمؤمنين المتقين مطالبين بالعدل وإقامته ومطالبين بمجاهدة الظلم ورده عمن وقع عليه، وهم جميعا يد على من ظلم ولو كان ولد أحدهم.

قالت: « وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ».

وقالت: «وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ».

وهذه العبارة من جوامع كلمه ﷺ، فإن النصر في الإسلام للمظلوم أيا كان دينه وأيا كان عرقه.

وجاءت هذه القاعدة تطبيقا ومصداقا لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٣٥]

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨]

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]

---

(١) رواه البخاري (كتاب الأدب ـ باب تَعَاوُنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا).

(٢) رواه مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ـ باب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ).

فكانت العدالة من أبرز ما تأسست عليه هذه الوثيقة، وتمثلت في توافق الحقوق والواجبات وتناسقها ، إذ تضمنت حقوق الأفراد جميعا في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم.

و ـ ونصت كذلك الوثيقة على قاعدة المسئولية الشخصية بمعنى أنه كل إنسان يتحمل مسئولية جرمه وما كسبه، يُسْأَل عنه ويُؤَاخَذ به، لا يحل مؤاخذة الجماعة بجريرة الفرد.

قالت: «إِلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إِلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ».

قالت: «وَإِنّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ».

وقالت: «لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلّا عَلَى نَفْسِهِ».

ونصت على قاعدة المسئولية الجماعية، بمعنى أن الجماعة كلها مسئولة عن محاصرة الظالم أو الجاني ومحاكمته والحرص على نواله العقاب على ما اقترف من الجرم.

قالت: «وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ».

وقالت: « وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافّةٌ، وَلَا يَحِلّ لَهُمْ إِلّا قِيَامٌ عَلَيْهِ».

وقالت: «وَإِنّهُ لَا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ، وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».

وفي نهاية الوثيقة أكد رسول الله ﷺ على الحرية وأنها مكفولة للجميع ينعمون بها آمنين من كل سوء أو شر.

قالت: «وَإِنّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ، وَإِنّ اللهَ جَارٌ لِمَنْ بَرّ وَاتّقَى، وَمُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

فمن رفض الانضمام للوثيقة فإنه حر وآمن، إن خرج من المدينة فهو آمن، وإن قعد فيها فهو آمن شريطة ألا يظلم أو يعتدي على الجماعة.

وفي هذا البند الأخير إشارة أن هذه الوثيقة لم تكن وثيقة خاصة مغلقة على من انضم إليها، بل إن كثيرا من بنود الوثيقة كانت قواعد كلية ومفاهيم إسلامية ومبادئ في التعايش مع الآخر، قبل الوثيقة وبعدها، أي في وجود وثيقة تعايش مدونة وموقع عليها وبدون وجود هذه الوثيقة فإن المسلمين يلتزمون بالمبادئ العامة التي نصت عليها الوثيقة في التعايش مع الآخر؛ لأن أغلبها قواعد كلية نص عليها الكتاب والسنة في كثير من مواضعها، فهي قواعد في احترام حقوق الإنسان والأكوان، وهي تتحدث عن المساواة في الإنسانية، وتتحدث عن الكرامة الإنسانية، وحرمة العرض والمال والدين، وتحدثت أيضا عن العدل وإقامة الحق ولو على أنفسنا، وهي أمور معلومة من دين الإسلام ضرورة، لا يختلف عليها اثنان.

كيف تعامل اليهود مع هذه الوثيقة؟

يمكن رصد كيفية تعامل اليهود مع هذه الوثيقة في البنود التالية:

١- سعت جماعات اليهود على تأليب القبائل العربية والأحزاب من المشركين على رسول الله ﷺ، وحثتهم على مهاجمة المدينة وقتل المسلمين، وقد قام حيي بن أخطب وغيره من كبار اليهود بدور كبير في هذا الشأن.

يحكى لنا ابن هشام ما جرى من خيانة للعهد، قال: وَنَصَبَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أَحْبَارُ يَهُودَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَدَاوَةَ بَغْيًا وَحَسَدًا وَضَغْنًا، لِمَا خَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْعَرَبَ مِنْ أَخْذِهِ رَسُولَهُ مِنْهُمْ، وَكَانَتْ أَحْبَارُ يَهُودَ هُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَيَتَعَنَّتُونَهُ، وَيَأْتُونَهُ بِاللَّبْسِ لِيُلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، فَكَانَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ فِيهِمْ فِيمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ.

وإِنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ، مِنْهُمْ سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ النَّضْرِيُّ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ النَّضْرِيُّ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيُّ، وَأَبُو عَمَّارٍ الْوَائِلِيُّ، فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ وَهُمُ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ، فَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟ قَالُوا: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُ.(١)

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ١/ ٥١٣.

٢- وقام شعراء اليهود يصرحون بعدائهم للمسلمين وحزنهم لهزيمة المشركين في بدر، فقد قاموا برثاء قتلى قريش، وعبروا في قصائدهم عن حقدهم على المسلمين وولائهم للمشركين.

ونظمت الشاعرة اليهودية أسماء بنت مروان كثيرا من القصائد في هجاء الرسول ﷺ.

وأنشد كعب بن الأشرف اليهودي في مكة عدة قصائد بعد غزوة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم.

وقد أعاد إنشاد هذه القصائد في المدينة حين عودته إليها وفي حضور بعض المسلمين.

٣- وأما بنو قينقاع فقد أظهروا نقضهم للعهد وعَرَّضُوا بالحرب قالوا للنبي ﷺ بعد غزوة بدر: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا.(١)

وناوشوا المسلمين بالفعل، فإنه قَدِمَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ بِجَلَبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ.(٢)

فاشتعلت الحرب بين المسلمين واليهود، ولما انهزموا أمر النبي ﷺ أن يُجْلوا عن المدينة وتصادر أموالهم.

٤- وأما بنو النضير فقد بدءوا الرسول بالغدر، فامتنعوا عن تنفيذ بنود المعاهدة التي صدقوا عليها، فقد طلب منهم النبي ﷺ الاشتراك معه في دفع دية الرجلين الْعَامِرِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فرفضوا.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٥١.

(٢) ابن هشام ٢/ ٤٨.

وقد تآمروا على قتل النبي ﷺ غيلة، اجتمعوا على طرح الصخرة عليه.

ولما وجدوا رسول الله ﷺ نبذ إليهم عهد السلم وهَمَّ بقتالهم لما فعلوه أصروا على موقفهم من عدم الوفاء بما نصت عليه المعاهدة من لزوم المشاركة المادية في دفع الديات، وكذلك لم يعتذروا أو ينكروا محاولتهم قتل رسول الله، ويطلبوا تجديد العهد معه.

ولقد حاصرهم رسول الله ﷺ فلما أحسوا الهزيمة وقذف الله في قلوبهم الرعب سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ وَيَكُفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلْقَةَ، فَفَعَلَ ﷺ.

فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنْ نِجَافِ بَابِهِ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ فَيَنْطَلِقُ بِهِ. فَخَرَجُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ.

وقد غادروا المدينة في ستمائة بعير نقلوا عليها أحسن ما في بيوتهم. **وَاسْتَقَلُّوا بِالنِّسَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَمْوَالِ مَعَهُمْ الدُّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ خَلْفَهُمْ، بِزُهَاءٍ وَفَخْرٍ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ مِنْ حَيٍّ مِنَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ.**(١)

فيبدوا أنهم اعتبروا مصالحة رسول الله ﷺ لهم على هذه الشروط نصرا لهم، فقد خرجوا من المعركة بنسائهم وصبيانهم وكل ما في بيوتهم وخربوا لرسول الله كل ما وراءهم من دور وحوائط، فهم يظنون أن رسول الله قاتلهم من أجل الغنائم وهم قد فوتوها عليه.

قال تعالى: ﴿**مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢**﴾ [سورة الحشر: آية ٢]

٥- غدر بني قريظة بالمعاهدة:

لقد كان غدر بني قريظة وخيانتهم لرسول الله والمؤمنين في المدينة أشد من غدر غيرهم من اليهود، فإنهم سعوا إلى خيانة لو تَمَّتْ لهم لَفَنِيَ المسلمون عن آخرهم.

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ٢/ ١٨٩.

فقد كانوا يملكون حصنا منيعا أسفل المدينة، فنقضوا عهدهم مع رسول الله وتحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قدموا لغزو المدينة في غزوة الخندق، ولولا الدور الذي قام به الصحابي نعيم بن مسعود لهلك المسلمون.

تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة:

قَالَتْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: رمى سَعْداً رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ. بِسَهْمٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرِقَةِ. **فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ، فَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْنِى حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِى مِنْ قُرَيْظَةَ.**

قَالَتْ: وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِى الْجَاهِلِيَّةِ.

قَالَتْ: فَرَقَى كَلْمُهُ وَبَعَثَ اللهُ عز وجل الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَكَفَى اللهُ عز وجل الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً، فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، **وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ فَتَحَصَّنُوا فِى صَيَاصِيهِمْ**، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَضَعَ السِّلاَحَ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ فِى الْمَسْجِدِ.

قَالَتْ: فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ؛ وَإِنَّ عَلَى ثَنَايَاهُ لَنَقْعُ الْغُبَارِ فَقَالَ: أَقَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ وَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ بَعْدُ السِّلاَحَ، اخْرُجْ إِلَى بَنِى قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُمْ. قَالَتْ: فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأْمَتَهُ وَأَذَّنَ فِى النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا، **فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْساً وَعِشْرِينَ لَيْلَةً.**

وفي رواية البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِى بَنِى قُرَيْظَةَ». (١)

يلاحظ في رواية السيدة عائشة أن يهود بني قريظة كانوا مدركين لأمر خيانتهم لعهدهم مع رسول الله والمؤمنين؛ لأنهم وبمجرد أن ارتد مشركو قريش عن المدينة رجعوا إلى صياصيهم وتحصنوا بها، وتحسبوا لخوض المعركة مع النبي ﷺ.

---

(١) البخاري (كتاب المغازي ـ بابُ مَرْجَعِ النَّبِىِّ ﷺ مِنَ الأَحْزَابِ وَمَخْرَجِهِ إِلَى بَنِى قُرَيْظَةَ وَمُحَاصَرَتِهِ إِيَّاهُمْ).

الأمر الآخر أنهم حوصروا خمسا وعشرين ليلة ولم يَرِدْ أنهم أحدثوا اعتذارا أو طلب سلم أو صلح مع رسول الله، ولكن أخذتهم العزة بالأثم، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ورسوله، وأن المؤمنين سيرتدون عنهم مغلوبين على أمرهم.

فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ وَاشْتَدَّ الْبَلاَءُ قِيلَ لَهُمْ: **انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ** ﷺ. فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ **قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». **فَنَزَلُوا** وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، **فَقَالُوا - أي قومُهُ: يَا أَبَا عَمْرٍو حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ.**

قَالَتْ: لاَ يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمُ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: قَدْ آنَ لِي أَنْ لاَ أُبَالِيَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ**». قَالَ: «**أَنْزِلُوهُ**». فَأَنْزَلُوهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْكُمْ فِيهِمْ**». قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُكْمِ رَسُولِهِ». (١)

توبة أبي لبابة:

بعث بنو قريظة إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، **وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **إِلَيْهِمْ**، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ وَجَهَشَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، **فَرَقَّ لَهُمْ**، وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ إِنَّهُ الذَّبْحُ.

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَوَاللهِ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ

(١) رواه أحمد في مسند عائشة رقم (٢٥٨٣٩).

عُمُدِهِ، وَقَالَ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيّ مِمّا صَنَعْت. وَعَاهَدَ اللهَ أَنْ لَا أَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا أُرَى فِي بَلَدٍ خُنْت اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَلَمّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَبَرُهُ وَكَانَ قَدْ اسْتَبْطَأَهُ قَالَ: أَمَا إنّهُ لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمّا إذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَمَا أَنَا بِالّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ.

فنزلت على رسول الله ﷺ توبته، فَثَارَ النّاسُ إلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ فَقَالَ: لَا وَاَللهِ حَتّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ. فَلَمّا مَرّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَارِجًا إلَى صَلَاةِ الصّبْحِ أَطْلَقَهُ. (١)

ولأول سابقة في التاريخ يَسْمَحُ صاحب السلطان والنفوذ والمنتصر، والمجني عليه في نفس الوقت؛ للمجرم والخائن والضعيف أن يختار قاضيه ومَنْ يحكم عليه بالعقوبة.

فقد سمح رسول الله ﷺ ليهود بني قريظة أن يختاروا شخصا يحكم عليهم، فاختاروا سعد بن معاذ، وظنوا أنه سيعفو عنهم أو يخفف عنهم العقاب، ولكنه على العكس من ذلك حكم عليهم بعقوبة الغدر والخيانة، وهي القتل والسبي.

وبالرغم من قسوة العقوبة، والتي كان بنو قريظة يتوقعونها استمروا في القتال دون طلب السلم أو العفو، وهم يعلمون ما يستحقونه من عقاب، ولم يطلبوا الاحتكام إلى قضاء سعد بن معاذ إلا بعد أن أحسوا الهزيمة في المعركة، وعلموا أن رسول الله ومن معه لن ينصرفوا عنهم حتى يحسموا أمرهم معهم.

وقد أراد النبي ﷺ أن يكشف لسعد بن معاذ ما ينويه اليهود من إيقاع الفتنة في نفسه، فإنه لما أَقْبَلَ سَعْدٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالنّاسُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ، فَلَمّا طَلَعَ سَعْدٌ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إلَى سَيِّدِكُمْ». فَكَانَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَقُولُونَ: فَقُمْنَا لَهُ عَلَى أَرْجُلِنَا صَفَّيْنِ، يُحَيِّيهِ كُلُّ رَجُلٍ مِنّا، حَتّى انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فحينما طلب اليهود الاحتكام إلى سعد بن معاذ كانوا يريدون الوقيعة بين الأوس والخزرج وبين النبي ﷺ وأصحابه، فقد كان سعدٌ زعيمَ الأوس، وفي تجنبهم لرسول الله

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٧\١٢.

وعدم رضاهم بالنزول على حكمه، واختيارهم لسعد بن معاذ محاولة منهم خاسرة لإيقاع الفرقة والضغينة بين المسلمين.

وقد كان عدد مَنْ طُبِّقَ عليهم عقوبةُ القتل جزاءً لما بيتوه من خيانة وغدر من الرجال سِتُّمَائَةٍ أَوْ سَبْعُمَائَةٍ، وَالْمُكْثِرُ لَهُمْ يَقُولُ: كَانُوا بَيْنَ الثَّمَانِمِائَةٍ وَالتِّسْعِمِائَةٍ.(١)

ومن النساء امرأة واحدة وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهِيَ الَّتِي طَرَحَتْ الرَّحَا عَلَى خَلَّادِ بْنِ سُوَيْدٍ، فَقَتَلَتْهُ. فَقَدْ كَانَ قَتْلُهَا قَصَاصًا.

فهذا يعني أن يهود بني قريظة لم يكونوا متحصنين في الحصون فقط، بل كانوا يحاربون المسلمين من ورائها، فيقذفونهم بالحجارة والسهام وغير ذلك.

ولقد نقض بنو قينقاع وبنو النضير عهدهم مع رسول الله وحاربوه فلما انتصر عليهم لم يأمر فيهم بمثل ما أمر في بني قريظة، وما ذلك إلا لأن بني قريظة ارتكبوا جريمة زائدة وهي الخيانة العظمى، والتي كان من شأنها لو أحاطت بالمسلمين أن قضت عليهم جميعا.

وفي وقت تطبيق العقوبة على بني قريظة كانت هناك حالات عفو فردية، ومن الأمثلة على ذلك ما تحكيه الروايات الآتية:

أ - أَتَى ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِلزُّبَيْرِ عَلَيَّ مِنَّةٌ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا، فَهَبْ لِي دَمَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هُوَ لَكَ**»؛ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ وَهَبَ لِي **دَمَكَ، فَهُوَ لَك**. قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ فَمَا يَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ؟ قَالَ: فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله هَبْ لِي امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ. قَالَ: «**هُمْ لَك**». قَالَ: فَأَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ الله ﷺ **أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، فَهُمْ لَكَ**. قَالَ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالْحِجَازِ لَا مَالَ لَهُمْ فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَالَهُ. قَالَ: «**هُوَ لَكَ**». فَأَتَاهُ ثَابِتٌ فَقَالَ: قَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ **مَالَكَ، فَهُوَ لَك**.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٠.

قَالَ: أَيْ ثَابِتُ مَا فَعَلَ الَّذِي كَأَنَّ وَجْهَهُ مِرْآةٌ صِينِيَّةٌ يَتَرَاءَى فِيهَا عَذَارَى الْحَيِّ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ مُقَدِّمَتُنَا إِذَا شَدَدْنَا، وَحَامِيَتُنَا إِذَا فَرَرْنَا، عَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلَ؟ قَالَ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فَعَلَ الْمُجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِيَّ عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ؟ قَالَ: ذَهَبُوا قُتِلُوا. قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِالْقَوْمِ، فَوَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أَنَا بِصَابِرِ لله فَتْلَةَ دَلْوٍ نَاضِحٍ حَتَّى أَلْقَى الْأَحِبَّةَ. فَقَدَّمَهُ ثَابِتٌ فَضُرِبَ عُنُقُهُ. فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَوْلَهُ أَلْقَى الْأَحِبَّةَ. قَالَ: يَلْقَاهُمْ وَاللهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا.

فإن الزبير القرظي طلب أن يُلْحَقَ بأصحابه ممن قتل، مما يعكس أن بني قريظة قد سيطرت عليهم فكرة أنهم ضحايا مظلومون مضطهدون شهداء، وليس الأمر كذلك، فلم يكونوا إلا خونة وغادرين، ومَا كَان يُصِيبُ النبيَّ وأصحابَه من جَراء خيانتهم لَهُوَ أَبْشَعُ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَصَابَهُم.

ويؤكد ذلك عبارة تكررت على لسان زعيم اليهود حيي بن أخطب والذي شهد ما فعله بنو النضير وما فعله بنو قريظة، وقال في الموطنين: **فَأَيُّ غِرَّةٍ نُصِيبُ مِنْهُمْ؟ هِيَ مَلْحَمَةٌ وَبَلَاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا.**

وعند قَتْلِهِ كرر نفس العبارة قال: **مَلْحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.**

وذلك حينما طَلَبَ من بني قريظة أن يتربصوا للنبي وأصحابه فيصيبوهم على غِرة.

ب – وإن سَلْمَى بِنْتَ قَيْسٍ أُمَّ الْمُنْذِرِ من بني النجار، وَكَانَتْ إِحْدَى خَالَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَدْ صَلَّتْ مَعَهُ الْقِبْلَتَيْنِ وَبَايَعَتْهُ بَيْعَةَ النِّسَاءِ، سَأَلَتْهُ رِفَاعَةَ بْنَ سَمَوْأَلَ الْقُرَظِيَّ، وَكَانَ رَجُلًا قَدْ بَلَغَ، فَلَاذَ بِهَا، وَكَانَ يَعْرِفُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، هَبْ لِي رِفَاعَةَ، فَإِنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الْجَمَلِ. قَالَ: فَوَهَبَهُ لَهَا. فَاسْتَحْيَتْهُ. فأسلم وله صحبة.

فإن سلمى بنت قيس من بني النجار كانت تعرف رفاعة، فلما أصابه ما أصابه واستحق القتل لاذ بها يطلب منها الحماية والجوار، وجملة «**ويأكل لحم الجمل**» يبدو أنها كناية عن أن رفاعة سيكون مواليا للمسلمين ولن يغدر أو يخون.

ويلاحظ أن رسول الله وهبه لها أولا، ولم يطلب منها أن ترغمه على الإسلام أو تفاوضه على الحياة مقابل الإسلام، ولكن كل ما في الأمر أن سلمى قالت له: استحي من رسول الله وقد عفا عنك وأنت تعرف صدقه. **فَأَسْلَمَ بعد نجاته من القتل، ولم يسلم لكي ينجو.**

ج - وأسلم منهم في تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.(١)

ويلاحظ قوله «**قبل النزول**».

فلم يكن إسلامهم خوفا من القتل؛ لأنهم أسلموا قبل معرفة حكم سعد بن معاذ فيهم بالقتل، ويدل على أنهم أسلموا قبل النزول على حكم سعد أن اليهود تشاور في حصنهم.

فقال كعب بن أسد ـ وقد كان كارها لنقض العهد مع رسول الله ـ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، **وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيَّهَا شِئْتُمْ.** قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: نُتَابِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ فَتَأْمَنُونَ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَنِسَائِكُمْ.

ويبدو أن إسلام من أسلم كان استجابة لدعوة كعب بن أسد، والتي عرض فيها لاختيارات تؤكد أن حكم سعد بن معاذ لم يكن صدر في شأنهم.

د - وقد نزل من معسكر بني قريظة عَمْرُو بْنُ سُعْدَى الْقُرَظِيُّ فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سُعْدَى.

وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حِينَ عَرَفَهُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ. ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ. فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَى بَابَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ ذَهَبَ فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ تَوَجَّهَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَأْنُهُ، فَقَالَ: **ذَاكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ.**(٢)

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم ص٢٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٨.

هـ- ولما تجمع الرجال البالغون من بني قريظة عند رسول الله ينتظرون تنفيذ ما حكم به سعد أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَحْمَالِ التَّمْرِ فَنُثِرَتْ عَلَيْهِمْ.

و - وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحْسِنُوا إِسَارَهُمْ وَقَيِّلُوهُمْ وَاسْقُوهُمْ حَتَّى يُبْرِدُوا فَتَقْتُلُوا مَنْ بَقِيَ، لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السِّلَاحِ». وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا.(١)

مسألة السلام على أهل الذمة وكيف يلتقي المسلم مع الذمي أو الكتابي خاصة؟:

أول ما يقابلنا في تلك المسألة كراهية بعض الفقهاء ابتداءهم بالسلام.

وقد استدلوا في هذا الصدد بما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَبْدَؤُوا **الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى** بِالسَّلاَمِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».(٢)

وقال في الحديث الذي تلاه: وفي حديث وكيع: «إِذَا لَقِيتُمُ **الْيَهُودَ**». وفي حديث ابن جعفر عن شعبة قال فيه: «**أَهْلَ الْكِتَابِ**». وفي حديث جرير: «**إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ**». **وَلَمْ يُسَمِّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.**

وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة، وابن أبى محيريز، وهو وجه لبعض أصحابنا ـ من الشافعية ـ حكاه الماوردى.(٣)

قال القرطبي: «قيل لابن عيينة: **هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم.** قال الله تعالى: ﴿**لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨**﴾ [الممتحنة: ٨]

وقال: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ)، **وقال إبراهيم لأبيه:** (سَلَامٌ عَلَيْكَ).

قال القرطبي: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان: روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى بِالسَّلاَمِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ». خَرَّجَهُ البخاري ومسلم.

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٥١٣-٥١٤.

(٢) صحيح مسلم (كتاب السلام ـ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم)

(٣) النووي: شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٤٥.

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلاَطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِيهِمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ. الحديث.

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء؛ لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله. والحديث الثاني يُجَوِّزُ ذلك.

قال الطبري: ولا يُعَارَضُ مَا رَوَاهُ أسامةُ بحديث أبي هريرة؛ فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مَخْرَجُهُ العمومُ، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص. وقال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لاَ تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلاَمِ» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تَعْرِضُ لكم قِبَلَهُمْ أو حَقِّ صُحْبَةٍ أو جِوَارٍ أو سَفَرٍ.

قال الطبري: **وقد رُوِيَ عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب، وفعله ابن مسعود بِدُهْقَانٍ صَحِبَهُ في طَرِيقِهِ.** قال علقمة: فقلت له يا أبا عبد الرحمن: أليس يُكْرَهُ أن يُبْدَؤوا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حَقُّ الصحبة. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه. فقيل له في ذلك، فقال: أُمِرْنَا أَنْ نُفْشِيَ السلامَ.

وسئل الأوزاعي عن مسلم مَرَّ بكافر فسلم عليه فقال: إن سلمتَ فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم.(١)

وأرى أن قول النبي ﷺ فيه خصوصية، فهو يخص اليهود فقط من بني قريظة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ١٠٣

فإنهم لما غدروا بالعهد وخانوا وهموا بإدخال المشركين في ظهور المسلمين في غزوة الخندق، ورأى النبي معاقبتهم على هذه الخيانة وفَسْخَ العهد الذي بينه وبينهم، بمجرد أن يَرُدَّ خطر الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة، وأراد النبي ﷺ ـ خلال فترة الحصار ـ من أصحابه أن ينبذوا إليهم عهدهم ويشعروهم في صورة رمزية بدنو الحرب عليهم، ولم يُؤْثَرْ عن رسول الله أنه غلظ لأهل الكتاب عامة أو اليهود أو حتى المشركين عبدة الأوثان، فقد كان رحمة قال عنه ربه: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وقال عنه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ).

فكان ﷺ يُحْسن جوارهم، ويَعُود مرضاهم، ويعزيهم في مصائبهم، فمن يتصور أن رسول الله في المدينة أو في مكة كان يزور اليهود أو المشركين فلا يسلم عليهم.

فمسألة الامتناع عن إلقاء السلام على بني قريظة كان يُشْبِهُ الإعلان بالحرب، وليس فيه حُكْمٌ عام يشمل أهل الكتاب جميعا أو اليهود جميعا، ولكن ربما يشمل من كان من أهل الذمة أو أهل العهد أشبه حاله حال بني قريظة من خيانة للعهد.

ولم يكن رسول الله ﷺ لينهى عن السلام على أهل الكتاب أو أهل الذمة ثم هو يرد عليهم السلام، بل يرد عليهم وهو يعلم أنهم يدعون عليه ويسيئون القول، ويُعَلِّمُ السيدة عائشة أن الرفق ما كان في شيء إلا زانه وأن الفحش والغلظة والعنف ما كان في شيء إلا شانه.

وفي صحيح البخاري عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ». قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ».(١)

وما فعل النبي ﷺ ذلك، وما فعلت السيدة عائشة مع هؤلاء اليهود ما فعلت إلا أنهم قوم ماكرون بذيئون يلحنون بالسلام ليجعلوه دعاء، وعلى الرغم من ذلك ما وجدوا عند رسول الله إلا حسن الرد وحسن الخلق والرأفة والرحمة، فما بالنا لو أنهم كانوا مسالمين أو كانت

(١) صحيح البخاري (كتاب الأدب ـ باب لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا).

أخلاقهم طيبة هل يُتَوَقَّعُ من رسول الله أو من المسلمين أن يتجنبوهم أو يغلظوا عليهم، ولا يوصف الامتناع عن السلام إلا بالشدة والجفاء.

ويؤيد ما ذهبت إليه من خصوصية النهي عن السلام ببني قريظة لنبذ عهدهم إليهم:

١ – ما رواه ابن ماجه عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قال ﷺ: «**إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى الْيَهُودِ. فَلاَ تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلاَمِ. فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ.**»(١)

٢ – وما رواه أحمد في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي نضرة الغفاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ، فَلاَ تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلاَمِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ».(٢)

وذلك يجعلنا نخصص نهي رسول الله السابق بحادثة بني قريظة، خاصة أنه في القرآن الكريم من العموم الذي يؤيد ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة الزخرف: آية ٨٨-٨٩]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة القصص: آية ٥٥]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان: آية ٦٣]

وثبت عن ابن عباس أنه قال: **من سَلَّمَ عليك فَرُدَّ عليه ولو كان مجوسيا**. وبه قال الشعبي وقتادة.(٣)

أما عن كيفية الرد نقول: عليكم. أو وعليكم.

---

(١) ابن ماجه (كتاب الأدب ـ باب رد السلام على أهل الذمة)، وصححه الألباني. ومسند أحمد وصححه شعيب الأرناؤوط. ورواه البخاري في الأدب المفرد وأيضا ابن أبي شيبة في المصنف.

(٢) مسند أحمد رقم (٢٧٩٩٧). وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٢.

وهذا يختلف بطبيعة الحال الذي يكون عليه من نَرُدُّ عليهم من السلم أو العداء.

قال النووي: إثباتها ـ أي الواو ـ أجود، فمعناه بدونها: عليكم ما تستحقونه. وبها: أنهم إن لم يقصدوا دعاء علينا فهو دعاء لهم بالإسلام؛ فإنه مناط السلامة في الدارين، وإن قصدوا التعريض بالدعاء علينا فمعناه: ونقول لكم وعليكم ما تريدون بها أو تستحقونه.

ثالثًا: المنافقون في المدينة.

يعد النفاق والمنافقون خطرًا داهمًا وشرًّا مستطيرًا على الإنسان والمجتمع، لذا حذر الإسلام من النفاق وأهله، وأنزل الله ﷻ سورة باسمهم، تسمى بسورة المنافقون قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون:١-٤]

ووجه خطرهم الشديد على الإسلام أنهم منسوبون إليه وهم في الحقيقة أعداؤه، ويخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد، لذا كانوا أعظم خطرا وضررا من الكفار المجاهرين.

فالمنافقون هم أهل الجبن والدسيسة، وقد لعبوا دورا في الوقيعة بين المسلمين وتقليب أحزاب الكفر على المسلمين، وإيذاء رسول الله ﷺ والإساءة إلى عرضه، صبر رسول الله عليهم وعَلِمَ أن عوامل الهدم والانقراض تعمل فيهم، وأنهم سرعان ما سينتهي أمرهم وسيبطل مفعول مكرهم وشرهم.

عن جَابِرٍ رضي الله عنه قال: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ». ثُمَّ قَالَ: «مَا شَأْنُهُمْ». فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَقَالَ عُمَرُ: أَلاَ نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهَّ هَذَا الْخَبِيثَ. لِعَبْدِ اللهَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». (١)

وقد كان عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلُول رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِلَيْهِ يَجْتَمِعُونَ، هُوَ الّذِي قَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

وَفِي قَوْلِهِ ذَلِكَ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ بِأَسْرِهَا.

وكان من النفر الذين كَانُوا يَدُسّونَ إِلَى بَنِي النّضِيرِ حَيْنَ حَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: أَنْ اُثْبُتُوا، فَوَاَللهّ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنّكُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر: ١١].

وَأَتَى عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهّ إِنّهُ بَلَغَنِي أَنّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهّ بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إلَيْك رَأْسَهُ، فَوَاَللهّ لَقَدْ عَلِمَتْ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرّ بِوَالِدِهِ مِنّي، وَإِنّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهّ بْنِ أُبَيّ يَمْشِي فِي النّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النّارَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ نَتَرَفّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا». (٢)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ عَبْدَ اللهَّ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ فَقَالَ: «آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ». فَآذَنَهُ. (٣)

---

(١) البخاري (كتاب التفسير ـ باب قَوْلِهِ (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَّ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٢.

(٣) البخاري (كتاب الجنائز ـ باب الْكَفَنِ فِى الْقَمِيصِ).

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا - أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ - فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ». فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ فَغُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا». قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلاَّ يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ (بَرَاءَةٌ) (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا) إِلَى (وَهُمْ فَاسِقُونَ)[1]

رابعًا: المشركون في المدينة.

انتشر الإسلام في المدينة بين الأوس والخزرج قبل مجيء رسول الله إليها، وظل ينتشر فيها بعد مجيئه، داخل المدينة وخارجها، ولكن بقي بعض أهل المدينة على شركهم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ إِذْ قَدِمَهَا شَهْرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ إِلَى صَفَرٍ مِنْ السَّنَةِ الدَّاخِلَةِ حَتَّى بُنِيَ لَهُ فِيهَا مَسْجِدُهُ وَمَسَاكِنُهُ وَاسْتَجْمَعَ لَهُ إِسْلَامُ هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ أَهْلُهَا، **إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَطْمَةَ وَوَاقِفٍ وَوَائِلٍ وَأُمَيَّةَ وَتِلْكَ أَوْسُ اللهِ وَهُمْ حَيٌّ مِنْ الْأَوْسِ، فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَى شِرْكِهِمْ.**[2]

والمشركون في المدينة كانوا أقلية لم يُؤْثَر أنها شاغبت أو آذت جماعة المسلمين، ولم تتكتل في محاربة رسول الله كما فعل المنافقون أو اليهود، ولذلك لم يؤثر أن رسول الله أو أحدا من أصحابه تعرض إليهم بسوء أو اضطهاد أو تضييق.

الرابع: نموذج المدينة في عهدها الأخير:

ليس صحيحًا أن يُظَن أن المدينة في عهدها الأخير كانت أحادية لا تنوع في سكانها من حيث الدين، فإن الإسلام والمسلمين لا يعترفون أو يقرون بمسألة تطهير الأرض وتوحيد الدين وإكراه الناس على الدخول في دينهم أو الرحيل من أرضهم.

---

(١) البخاري (كتاب الجنائز ـ باب مَا يُكْرَهُ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى المُنَافِقِينَ وَالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٩.

فالمدينة حتى وفاة رسول الله ﷺ كان فيها يهود يبيعون ويتاجرون ويعيشون بسلام، نعم لم يعد لليهود في المدينة في عهدها الأخير تكتلات سكنية أو حصون حربية منفصلة ومغلقة كما كان في العهد الأول، ولكن كان هناك يهود مدنيون بمعنى أفراد غير محاربين يسكنون المدينة ويعيشون مع أهلها.

اليهود داخل المدينة في عهدها الأخير.

ونضع بين يدي القارئ مجموعة من المؤشرات والمواقف التي توضح تعايش اليهود بسلام وأمان في المجتمع المسلم في المدينة المنورة في عهدها الأخير:

أ - عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِى اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ. فِى قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ الْيَهُودِىُّ: وَالَّذِى اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ الْيَهُودِىَّ، **فَذَهَبَ الْيَهُودِىُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ**، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُونِى عَلَى مُوسَى**، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِى أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِى أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ». (١)

وفي الحديث أن اليهودي استب ومسلما، وأن اليهودي احتكم إلى رسول الله، وأن رسول الله نهى عن التفرقة بينه وبين موسى.

وكل ذلك يعكس أن هناك حياة اجتماعية بين المسلمين واليهود في المدينة.

فإن غير المسلم يعيش في المجتمع الإسلامي بأمان الله وأمان الحاكم المسلم وأفراد المسلمين جميعا، يحميه سلطان الشرع. والشاهد في الحديث أنه كان هناك أفراد من اليهود يحتكمون في قضاياهم لرسول الله ﷺ واثقين في عدله ورحمته، وأن رسول الله ﷺ احترم الأديان واحترم الأنبياء وحرص على عدم انتقاص حرية العقيدة أو المساس بكرامة الإنسان.

---

(١) البخاري (كتاب التوحيد ـ باب فِى الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ).

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا».(١)

وروى أبو داود عن جَمْعٍ من الصحابة أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».(٢)

ب ـ هدي رسول الله ﷺ في عيادة المرضى من أهل الذمة.

روي أن رسول الله ﷺ أَتَى غُلَامًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَرِضَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَأَسْلَمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ».(٣)

الشاهد في الحديث أن الأسر اليهودية كانت موجودة في المدينة في عهدها الأخير، مختلطة ومندمجة مع الأسر المسلمة، وكان رسول الله ﷺ يحرص على حسن الجوار وعيادة المرضى وغير ذلك من الواجبات الاجتماعية، يؤديها إلى المواطنين سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك.

والذي يدل على أن هذه الواقعة كانت في عهد المدينة الأخير أن اليهود في عهد المدينة الأول كانوا شبه منعزلين في حياتهم الاجتماعية عن المجتمع المدني يعيشون داخل الحصون والقلاع ولا يخرجون إلا للتجارة أو الزراعة، مما لا يسمح غالبا باطلاع المسلمين على أحوالهم من مرض أو صحة أو فقر أو غنى، ولكنا في هذه الواقعة نجد رسول الله ﷺ علم بمرض غلام يهودي فذهب ليواسيه ويواسي أبيه، وعندما عرض عليه الإسلام، لم يتردد أباه أن أمره بطاعة رسول الله ﷺ، ولم يفكر الرجل بضغوط أو انتقادات أو معاقبة قد تفرضها عليه جماعة اليهود هنا أو هناك.

---

(١) صحيح البخاري (أبواب الجزية ـ باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم). ابن ماجه (كتاب الديات ـ باب من قتل معاهد).

(٢) سنن أبي داود (كتاب الخراج ـ باب فِي تَعْشِيرِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتِّجَارَاتِ).

(٣) صحيح البخاري (كتاب الجنائز ـ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام).

أمر الرجل اليهودي ابنه وهو مشرف على الهلاك أن يطع رسول الله ويقر بالإسلام، لم يفعل ذلك لسلطان رسول الله أو كراهة، فإن ابنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، والعجيب أن الرجل نفسه لم يسلم ولم يقر لرسول الله بالنبوة، ولكنه آثر لابنه النجاة في لحظته الأخيرة، ولو كان الأمر فيه إكراه لكان الرجل أسلم أيضا.

ج - وحاول بعض الصحابة في عهد رسول الله ﷺ أن يتستر على سارق مسلم وأن ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَلَا تَجْدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١١٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فنزلت آيات ست في سورة النساء تدافع عن حق اليهودي في أن ينال العدالة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء]

(وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا). قال الطبري: (ولا تكن) لمن خان مسلما أو معاهدا في نفسه أو ماله (خَصِيمًا) تخاصم عنه وتدفع عنه من طَالَبَه بحقه الذي خانه فيه.

وأُنْزِلَتْ كُلُّهَا فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ أَحَدُ بَنِي ظَفَرِ بْنِ الْحَارِثِ سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَكَانَتِ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيهِ دَقِيقٌ، فَجَعَلَ الدَّقِيقُ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْقٍ فِي الْجِرَابِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّارِ وَفِيهَا أَثَرُ الدَّقِيقِ، ثُمَّ خَبَّأَهَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ.

فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ وَحَلَفَ لَهُمْ: وَاللهِ مَا أَخَذَهَا وَمَا لَهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ. فَقَالَ أَصْحَابُ الدِّرْعِ: بَلَى وَاللهِ قَدْ أَدْلَجَ عَلَيْنَا فَأَخَذَهَا وَطَلَبْنَا أَثَرَهُ حَتَّى دَخَلَ دَارَهُ، فَرَأَيْنَا أَثَرَ الدَّقِيقِ.

فَلَمَّا أَنْ حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقِيقِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، وَشَهِدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَتْ بَنُو ظَفَرٍ وَهُمْ قَوْمُ

طُعْمَةَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكَلِّمُوهُ فِي ذلك، فسألوه أَنْ يُجَادِلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ، وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَلَكَ صَاحِبُنَا وَافْتُضِحَ وَبَرِئَ الْيَهُودِيُّ.

وقَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جَفَاءٍ عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ وَأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَآمُرُ فِي ذَلِكَ».

فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أَسِيرُ بْنُ عُرْوَةَ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاَحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبْتٍ.

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ فَقَالَ: « عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ وَصَلاَحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ».

قَالَ: فَرَجَعْتُ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥] بَنِي أُبَيْرِقٍ.(١)

وفي هذه القصة يتبين لنا كيف أرسى الإسلام مبادئ التعايش السلمي وأسس الوئام والعدل والتسامح في التعامل مع غير المسلمين في ظل المجتمع الإسلامي ، فالدولة الإسلامية قامت على أساس المواطنة التي لا تمييز فيها بين إنسان وغيره بالدين أو اللون أو العرق.

والإسلام جاء لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإخراج الإنسان عن الظلم ، فالعدل يمثل دعامة وطيدة وصفة أصيلة للشريعة الإسلامية، حيث أمرت بأن يكون الحكم بالعدل ولو تعلق الحكم بمن نحمل له الكراهية والضغينة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٠، والترمذي (كتاب تفسير القرآن ـ باب وَمِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ).

بل ويجب تحري العدالة ولو كان حكمها ضد النفس أو الأقارب، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا».(١)

كما أكد الإسلام على أن المساواة سمة من سماته وأصل من أصوله، فالناس في حكمه سواسية، وفي ظله تتلاشى الفوارق، وتزول كل الاعتبارات عدا التقوى، فلا تفاضل بين الناس في إنسانيتهم، قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحدًا ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».(٢)

وفي ظل دولة المدينة التي أسسها رسول الله ﷺ أكد على قيمة العدل بين فئات المجتمع على اختلاف أعراقهم وأديانهم، حتى إن الرسول تعامل بالعدل والإحسان مع غير المسلمين في المدينة.

د - وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلاَ يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ. فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ (فتح خيبر كان في المحرم من العام السابع من الهجرة) شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِى أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ». فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِىُّ فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ: «مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِى صَنَعْتِ». قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِى صَنَعْتُ وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُتِلَتْ.(٣)

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الحدود ـ باب كَرَاهِيَةِ الشَّفَاعَةِ فِى الْحَدِّ، إِذَا رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ).

(٢) مسند أحمد ٥/ ٤١١.

(٣) أبو داود (كتاب الديات ـ باب فِيمَنْ سَقَى رَجُلاً سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ).

ولم يأخذ رسول الله ﷺ اليهود جميعا بجريرة هذه المرأة التي حاولت قتله وأصحابه بالسم، ولم يطرد يهود خيبر وقد أبقاهم في أرضهم يزرعونها بعد فتح حصنهم.

ويقال: إن هذه المرأة هي أخت مَرْحَب اليهودي وأخيه ياسر اللذين قتلا في مبارزة في فتح خيبر.

وقد دبرت الأمر فسألت: أَيّ عُضْوٍ مِنْ الشّاةِ أَحَبّ إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ؟ فَقِيلَ لَهَا: الذّرَاعُ. فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنْ السّمّ.

وسَمّتْ سَائِرَ الشّاةِ ثُمّ جَاءَتْ بِهَا؛ فَلَمّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهّ ﷺ تَنَاوَلَ الذّرَاعَ فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً فَلَمْ يُسِغْهَا، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللهّ ﷺ. فَأَمّا بِشْرٌ فَأَسَاغَهَا؛ وَأَمّا رَسُولُ اللهّ ﷺ فَلَفَظَهَا، ثُمّ قَالَ: «إنّ هَذَا الْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنّهُ مَسْمُومٌ». ثُمّ دَعَا بِهَا، فَاعْتَرَفَتْ فَقَالَ: «مَا حَمَلَك عَلَى ذَلِكِ؟» قَالَ: بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك، فَقُلْت: إنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَبِيّا فَسَيُخْبَرُ.

قَالَ: فَتَجَاوَزَ عَنْهَا رَسُولُ اللهّ ﷺ. وَمَاتَ بِشْرٌ مِنْ أَكْلَتِهِ الّتِي أَكَلَ.(١)

فقد عفا عنها رسول الله ﷺ وتجاوز عن محاولتها قتله، ولكنها أُخِذَتْ بعد ذلك قصاصا ببشر بن البراء الذي مات من فوره بسبب السم.

ولم يكن لهذا السم تأثير على رسول الله أبدا، ومن رَوَى أن رسول الله حُمَّ بتأثير السم أو مات بسببه، فهو ظنٌّ منه خاطئ.

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]

وقد عاش رسول الله ﷺ من بعد هذه الأكلة أربع سنوات وشهرين، ولم يظهر عليه بسبب الأكلة أي أثر، ولم يُرْوَ أن رسول الله ﷺ كان يعاني في هذه السنوات الأربع التي خاض خلالها الوقائع أي مرض أو تعب، فكيف يُؤَثِّرُ فيه السمُّ فجأة بعد هذه السنوات؟!

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣٣٧.

هـ - وعَنْ عَائِشَةَ ل قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلاَثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ.(١)

فحتى وفاة رسول الله ﷺ كان هناك يهودي في المدينة يعمل بالتجارة في الشعير، ولم يجد حرجا في أن يأخذ من رسول الله ﷺ درعه رهنا، ولم يجد رسول الله حرجا في أن يعطيه إياه، فالحق أحق أن يتبع.

من كل ما سبق يتبين لنا جليا أن المدينة في عهدها الأخير كان يعيش فيها اليهود أفرادا وجماعات أيضا، فقد أبقى الرسول ﷺ على يهود خيبر وهم أكبر تجمعات اليهود أبقى عليهم يزرعون أرضهم وصالحهم على النصف من خراجها.

جماعات المنافقين والمرتدين داخل المدينة في عهدها الأخير.

كان المنافقون في المدينة في هذه الفترة يمثلون أكبر معارضة سياسية ودينية في المدينة، فقد كانوا يتآمرون على رسول الله ﷺ وأصحابه ليلا ونهارا، في أوقات السلم وأوقات الحرب، وقد آثر رسول الله في معاملته معهم العفو والحلم والصبر.

قال ابن الطلاع في أحكامه: لم يقع في شيء من المصنفات المشهورة أنه ﷺ قتل مرتدا ولا زنديقا.(٢)

والأمثلة كثيرة على صبر النبي ﷺ على أذى المنافقين وعدم توقيعه العقوبة عليهم، رغم كفرهم وردتهم، ورغم ما أتوا به من دسائس وخيانات. من ذلك:

أ - مِرْبَعُ بْنُ قَيْظِيٍّ

وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ حَيْنَ أَجَازَ فِي حَائِطِهِ وَرَسُولُ الله ﷺ عَامِدٌ إِلَى أُحُدٍ: لَا أُحِلُّ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا، أَنْ تَمُرَّ فِي حَائِطِي. وَأَخَذَ فِي يَدِهِ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصِيبُ بِهَذَا التُّرَابِ غَيْرَكَ لَرَمَيْتُكَ بِهِ. فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ.

---

(١) البخاري (كتاب الجهاد - باب مَا قِيلَ فِي دِرْعِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمِيصِ فِي الْحَرْبِ).

(٢) بدر الدين العيني عمدة القاري ٢٤/ ٨٠. وابن الطلاع: محمد بن فرج أبو جعفر القرطبي مولى محمد بن يحيى البكري المالكي ولد سنة ٤٠٤ وتوفي سنة ٤٩٧. له أحكام النبي ﷺ ويسمى أيضا أقضية رسول الله ﷺ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَعُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى، أَعْمَى الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصِيرَةِ».

فَضَرَبَهُ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ بِالْقَوْسِ فَشَجَّهُ، وَأَخُوهُ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ. فَأْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَيْهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيه ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝﴾ [الأحزاب: ١٣].

مربع بن قيظي هو أحد المنافقين الذين أظهروا الإيمان بأفواههم وأضمروا الكفر، وفعله مع رسول الله ﷺ كفر صراح وردة ظاهرة لا تأويل فيها، ولم يقتله رسول الله ﷺ ولم يأمر بقتله، بل لم يسمح لأصحابه أن يقتلوه، واكتفى بأن وَسَمَهُ بعمى القلب والبصيرة.

ب - وكان رسول الله ﷺ يتعايش مع أشر الناس ويلطف بهم ويبش لهم حتى يتجنب فحشهم وأذاهم، وهذا من باب وأد الشر داخل صاحبه قبل أن يُظْهِرَه ويُعْلِنَهُ.

فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ». فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهَّ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهَّ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ».(١)

ج - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ.

قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً». قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، اتَّقِ اللهَّ. قَالَ «وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ

(١) البخاري (كتاب الأدب - باب لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا).

الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَّ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهَّ، أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ. قَالَ: «لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّ». فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ. قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ».

قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُقَفٍّ فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهَّ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». وَأَظُنُّهُ قَالَ «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ ».(١)

د - وهناك أمر آخر يبين لطف رسول الله ﷺ ورفقه بمن وقع في النفاق، فإنه وعلى الرغم من علمه ﷺ بأسمائهم عن طريق الوحي؛ لأنه أُمِرَ ألا يصلي عليهم أو يستغفر لهم، وأمر بمجاهدتهم والغلظة معهم، فلابد أنه كان يعلمهم وأُخْبِرَ بحالهم وأسمائهم من قبل الوحي.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة: ٧٣].

ولكن رسول الله ﷺ لم يصرح بأسمائهم ولم يفضح شأنهم ولم يشهر بهم طمعا منه وأملا في أن يعودوا إلى حظيرة الإسلام أو تتألف قلوبهم المؤمنين، وهذا أيضا من هدي القرآن الكريم الذي لم يصرح بأعيان المنافقين بل كان يقول: (ومنهم من). مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ [التوبة: ٤٩]

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦]

وأَسَرَّ النبي ﷺ بعد موته إلى حافظ سره حذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين حتى لا يُصَلَّى عليهم ولا يُدْفَنُوا في مقابر المسلمين.

---

(١) البخاري (كتاب المغازي ـ باب بعث علي بن أبي طالب وخالد) ٥/ ١٦٣، رقم (٤٣٩٤)، مسلم (كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم) ٢/ ٧٤١، رقم (١٠٦٤).

وكذلك مات رسول الله ﷺ، وكان في المدينة منافقون، وقد أعلمه الله عز وجل بأسمائهم جميعا، ولكنه لم يأمر بقتلهم أو نفيهم، ولم يُشِعْ أسماءهم، بل أَسَرَّ بها؛ وذلك حتى لا يتعرضوا إلى الاضطهاد أو التضييق.

وهكذا تعامل الرسول ﷺ مع جميع رعايا الدولة الإسلامية في المدينة، رغم ما يكنه له البعض من عداء وكراهية، وما يبطنونه من حقد دفين، عاملهم بالرفق واللين حينا وبالغلظة والشدة حينا آخر؛ مقدما نموذجا فريدا للعالم أجمع للتعايش السلمي مع جميع أفراد المجتمع دون تأجيج للفتنة، وتنكيل بالخصوم، وهو الأمر الذي يجب على المسلمين اتباعه كي لا يشقوا وحدة صف الأمة في وقت هي في أمس الحاجة إلى الوحدة، وفي وقت يحاول أعداؤها زرع الفتنة وبث الوهن بين أبنائها، تلك هي الأسوة الحسنة في هذه النماذج التي قدمها الرسول ﷺ للتعامل مع الآخر، إنه التعايش والحذر وحفظ وحدة الأمة وحماية أمنها واستقرارها.

أما بالنسبة للمرتدين فقد حدثت بالمدينة حالات ردة عن الدين فكيف تعامل معها رسول الله ﷺ؟

١ – رُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ فَأَصَابَهُ وَعَكٌ، فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي. فَأَبَى، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي. فَأَبَى، فَخَرَجَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَتَنْصَعُ طِيبَهَا».

ظَاهِرُهُ أَنَّهُ سَأَلَ الْإِقَالَةَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبِهِ جَزَمَ عِيَاضٌ (١)

تركه رسول الله ﷺ يَرْحَل دون أن يأمر أصحابه أن يقتلوه أو يتتبعوه أو يراقبوه إن أصر على الردة قتلوه.

٢ – وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: **مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ**. فَأَمَاتَهُ اللهُ، فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفِظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ، فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفِظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا:

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٣/ ٢٠٠، والحديث في صحيح البخاري (كتاب الأحكام ـ باب بيعة الأعراب).

هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفِظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ.(١)

فقد كان رجل من بني النجار نصرانيًّا، فأسلم وقرأ القرآن، وجعل يكتب لرسول الله، ثم ارتد وانقلب إلى النصرانية، ولم يكتفِ بذلك بل صار يشنع على رسول الله ﷺ، ويقول: إنه لا يعلم شيئًا إلا ما كتبتُ له. فأماته الله.

وليس في الرواية أن رسول الله ﷺ أمر أحدا أن يقتله لردته، ومعنى أنه قرأ البقرة وآل عمران أنه استمر على الإسلام زمانا وأن ردته جاءت بعد الهجرة بسنوات.

٣ - ويحكى القرآن الكريم عن جماعة من اليهود، كانوا يترددون بين الكفر والإسلام ليفتنوا المؤمنين عن دينهم ويردوهم عن الإسلام.

فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾** ﴾ [سورة آل عمران: آية ٧٢]

وقد كانت هذه الردة الجماعية في المدينة، والدولة الإسلامية قائمة ورسول الله ﷺ حاكمها، ومع ذلك لم يعاقب هؤلاء المرتدين الذين يَرُومُون فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عنه.

وقد رُوِيَ أن رسول الله ﷺ أهدر دم بعض المرتدين أو المنافقين، وهم على التفصيل:

أ - مِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ اللَّيْثِيُّ:

قَدِمَ مِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ مِنْ مَكَّةَ مُسْلِمًا، فِيمَا يَظْهَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله جِئْتُكَ مُسْلِمًا، وَجِئْتُكَ أَطْلُبُ دِيَةَ أَخِي، قُتِلَ خَطَأً. فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِدِيَةِ أَخِيهِ هِشَامِ بْنِ صُبَابَةَ؛ فَأَقَامَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ غَيْرَ كَثِيرٍ، **ثُمَّ عَدَا عَلَى قَاتِلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ مُرْتَدًّا.(٢)

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٩٣.

وَقَتَلَ نُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الكِنَانِيُّ مِقْيَسَ بْنَ صُبَابَةَ الكِنَانِيَّ، وَكَانَ رسول الله ﷺ قَدْ أَمَرَ مَنْ وَجَدَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.(١)

والرواية واضحة الدلالة في أن رسول الله ﷺ لم يأمر بقتل مقيس لمجرد كفره أو ردته، ولكن لعدوه وخيانته وقتله قاتل أخيه خطأً بعدما رضي الدية وأخذها.

ب ـ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ:

كَانَ مُسْلِمًا، فَبَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ مُصَدِّقًا، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ مَعَهُ مَوْلًى لَهُ يَخْدُمُهُ وَكَانَ مُسْلِمًا، فَنَزَلَ مَنْزِلًا، وَأَمَرَ الْمَوْلَى أَنْ يَذْبَحَ لَهُ تَيْسًا، فَيَصْنَعَ لَهُ طَعَامًا؟ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَلَمْ يَصْنَعْ لَهُ شَيْئًا، فَعَدَا عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا.

فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنِ اقْتُلُوا ابْنَ خَطَلٍ وَلَوْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. فَقَتَلَهُ أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ.(٢)

وَكَانَتْ لَهُ قَيْنَتَانِ فَرْتَنَى وَصَاحِبَتُهَا، وَكَانَتَا تُغَنِّيَانِ بِهِجَاءِ رَسُولِ الله ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ فَلِهَذَا أَهْدَرَ دَمَهُ وَدَمَ قَيْنَتَيْهِ.(٣)

سياسة رسول الله ﷺ في التعايش مع الآخر خارج المدينة:

١ – سياسته مع المشركين المحاربين من قريش بعد الخندق.

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه قاصدين مكة محرمين يسوقون هديهم إلى البيت الحرام يبتغون العمرة، لا يحملون سلاحا، لا يرومون حربا.

فبأي شيء قابلتهم قريش وكيف قابلهم رسول الله؟

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٤٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١٠، والبلاذري: فتوح البلدان ١/ ٣٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٩٨.

أ ـ أحداث صلح الحديبية

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي آخِرِ سَنَةِ سِتٍّ فِي ذِي الْقِعْدَةِ مُعْتَمِرًا، لَا يُرِيدُ حَرْبًا، وَسَاقَ مَعَهُ الهدي سبعين بدنة وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِئَةِ رَجُلٍ فَكَانَتْ كُلّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشَرَةِ نَفَرٍ.

وَاسْتَنْفَرَ رسولُ الله ﷺالْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِي صَنَعُوا، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعَظِّمًا لَهُ.

وَتَجَنَّبَ الرَّسُولُ لِقَاءَ قُرَيْشٍ، حتى إذا كان بعسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

ثم قال: «من رجل يخرج بنا على غير طريقهم التي هم بها». فقال رجل من أسلم: أنا يارسول الله. فسلك بهم طريقًا وعرًا بين شعاب شق على المسلمين السير فيه، حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي. وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه. فقالوا ذلك.

فقال: والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها.

إرسال النبي ﷺبمبعوث إلى قريش في صلح الحديبية:

رأى النبي ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم نواياه السلمية وعدم رغبته في القتال، وأنه جاء معظما للبيت، سائقا للهدي، راغبا في أداء ال ثم الرجوع إلى المدينة.

فأرسل رسول الله ﷺ خراشَ بن أمية الخزاعي، وحمله على جمل يقال له: الثعلب. فلما دخل مكة عقرت قريش بعيره وهمت بقتله فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ.

فأرسل رسول الله ﷺ مبعوثا آخر، ووقع اختياره على عمر بن الخطاب، ولكنه اعتذر لرسول الله ﷺلأنه لا يأمن قريش على نفسه فقد أفجع كثيرا منهم في ذويه وقت الحرب، وليس له من يدافع عنه داخل مكة.

وقال لرسول الله: إني أخاف قريشا على نفسي، وقد عرفت عداوتي لها، وليس بها من بني عدي من يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم.

فأرسل رسول الله عثمان بن عفان ﷺ؛ لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين.

فخرج عثمان بن عفان ﷺ حتى أتى بلدح، فوجد قريشا هنالك فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه، وأخرى تكفون ويلي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون، إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم.

فجعل عثمان يكلمهم فيقولون: قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبدا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص فرحب به وأجاره، وقال: لا تقصر عن حاجتك. ثم نزل عن فرس كان عليه، فحمل عثمان علىّ السرج وردفه وراءه، فدخل عثمان مكة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً، أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية. فجعلوا يردون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبدا.

ثم قَالُوا لِعُثْمَانَ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيْهِمْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ.

وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة وبشرهم بقرب الفرج والمخرج، وأخذ منهم رسالة شفهية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة.

وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَدْ قُتِلَ.

فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ: لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ. فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمَوْتِ. وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يُبَايِعْنَا عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ.

ثُمَّ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ بَاطِلٌ.

وعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ». فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**». ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ [1]، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ

(١) الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ الْعُوذُ بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ بَعْدَهَا مُعْجَمَةٌ جَمْعُ عَائِذٍ وَهِيَ النَّاقَةُ ذَاتُ اللَّبَنِ وَالْمَطَافِيلُ الْأُمَّهَاتُ اللَّاتِي مَعَهَا أَطْفَالُهَا يُرِيدُ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَهُمْ بِذَوَاتِ الْأَلْبَانِ مِنَ الْإِبِلِ لِيَتَزَوَّدُوا بِأَلْبَانِهَا وَلَا يَرْجِعُوا حَتَّى يَمْنَعُوهُ أَوْ كَنَّى بِذَلِكَ عَنِ النِّسَاءِ مَعَهُنَّ الْأَطْفَالُ وَالْمُرَادُ أَنهم خَرجُوا مَعَهم بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ لِإِرَادَةِ طُولِ الْمُقَامِ وَلِيَكُونَ أَدْعَى إِلَى عَدَمِ الْفِرَارِ.

شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِى وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا ـ (أن يسالموني ويخلوا بيني وبين الناس) ـ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِى هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِى [1]، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ». فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا. فَقَالَ: سُفَهَاؤُهُمْ لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَىْءٍ. وَقَالَ ذَوُو الرَّأْىِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ. يَقُولُ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِىُّ ﷺ. فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَىْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِى؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّى اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَىَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِى وَوَلَدِى وَمَنْ أَطَاعَنِى؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِى آتِهِ. قَالُوا: ائْتِهِ. فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِىَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَىْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّى وَاللهِ لأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّى لأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ. فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِى لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِىَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِىِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِىِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ: أَىْ غُدَرُ [2]، أَلَسْتُ أَسْعَى فِى غَدْرَتِكَ [3]. وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِى الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ« أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِى شَىْءٍ ». ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِىِّ ﷺ

(١) السَّالِفَةُ بِالْمُهْمَلَةِ وَكَسْرِ اللاَّمِ بَعْدَهَا فَاءٌ صَفْحَةُ الْعُنُقِ وَكَنَّى بِذَلِكَ عَنِ الْقَتْلِ لِأَنَّ الْقَتِيلَ تَنْفَرِدُ مُقَدِّمَةُ عُنُقِهِ.

(٢) بِالْمُعْجَمَةِ بِوَزْنِ عُمَرَ مَعْدُولٌ عَنْ غَادِرٍ مُبَالَغَةٌ فِي وَصْفِهِ بِالْغَدْرِ.

(٣) أَيْ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي دَفْعِ شَرِّ غَدْرَتِكَ.

بِعَيْنَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ. فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَىْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِىِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى كِنَانَةَ: دَعُونِى آتِهِ. فَقَالُوا: ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« هَذَا فُلاَنٌ، وَهْوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ ». فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِى لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ. فَقَالَ: دَعُونِى آتِهِ. فَقَالُوا: ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ« هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ ». فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِىَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ النَّبِىُّ ﷺ« لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ». قَالَ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِىُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثُمَّ قَالَ «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ». فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ« وَاللَّهِ إِنِّى لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِى. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ». فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ« عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ ». فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1]، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ

(١) بِضَمِّ الضَّادِ وَسُكُونِ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَتَيْنِ ثُمَّ طَاءٌ مُهْمَلَةٌ أَيْ قَهْرًا.

دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ« إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ ». قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَىْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ«فَأَجِزْهُ لِي». قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ «بَلَى، فَافْعَلْ». قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَىْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ. وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ. قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ «بَلَى». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ «بَلَى». قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ «إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ نَاصِرِى». قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِى الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ». قَالَ: قُلْتُ: لاَ. قَالَ « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ ». قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا. قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ. قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا. قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِى رَبَّهُ وَهْوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِى الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ. قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ. قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا». قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِىَ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِىَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنّ رَسُولَ الله ﷺ أَهْدَى عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي هَدَايَاهُ جَمَلًا لِأَبِي جَهْلٍ فِي رَأْسِهِ بُرَّةٌ مِنْ فِضَّةٍ يَغِيظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة ١٠].

- قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعِيطٍ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فَخَرَجَ أَخَوَاهَا عِمَارَةُ وَالْوَلِيدُ ابْنَا عُقْبَةَ حتى قدما على رسول الله ﷺ يَسْأَلَانِهِ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيْهِمَا بِالْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ فِي الْحُدَيْبِيَةِ، فَلَمْ يَفْعَلْ أَبَى اللهُ ذَلِكَ.-

حَتَّى بَلَغَ (بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ - ﷺ- إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهْوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللهِ إِنِّي لأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا. فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ فَقَالَ أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ « لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا ». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ». فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ. قَالَ وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلاَّ لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلاَّ اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) حَتَّى بَلَغَ (الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ.

قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ صَالَحَ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ فَلَمَّا هَاجَرَ النِّسَاءُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِلَى الإِسْلاَمِ أَبَى اللهُ أَنْ يُرْدَدْنَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ إِذَا هُنَّ أُمْتُحِنَّ بِمِحْنَةِ الإِسْلاَمِ فَعَرَفُوا أَنَّهُنَّ إِنَّمَا جِئْنَ رَغْبَةً فِي الإِسْلاَمِ.

وَأَمَرَ بِرَدِّ صَدُقَاتِهِنَّ إِلَيْهِمْ إِنِ احْتَبَسْنَ عَنْهُمْ إِنْ هُمْ رَدُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ صَدَاقَ مَنْ حُبِسُوا عَنْهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

النِّسَاءَ وَرَدَّ الرِّجَالَ، وَسَأَلَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ صَدُقَاتِ نِسَاءِ مَنْ حُبِسُوا مِنْهُنَّ وَأَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ الَّذِي يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ إِنْ هُمْ فَعَلُوا.(١)

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ حسن التفاوض والتفكير المستقبلي في صلح الحديبية، وعلمنا أن الإخلاص لله هو الأساس والأصل في كل تصرف، فقد وافق رسول الله على صلح الحديبية على ما فيه من تنازلات؛ ليفك الحصار الجنوبي عن المدينة إلى الأبد؛ حيث اتفق المشركون في الجنوب واليهود في الشمال في حصن خيبر على سحق المدينة المنورة بالزحف عليها من كل جهة، فكان صلح الحديبية خطوة لتنحية المشركين وإبطال اتفاقهم مع اليهود.

فقد كانت هناك اتصالات مستمرة بين اليهود في المدينة والمشركين في مكة وفي باقي أنحاء الجزيرة العربية، وقد زادت هذه الاتصالات وأصبحت مؤامرات ومكائد وكمائن تنصب للمسلمين بغية القضاء عليهم وتقويض دولتهم الناشئة، زاد ذلك بعد فشل الخيانة التي عقدها يهود بني قريظة مع الأحزاب المشركة التي هجمت على المدينة، وكان الاتفاق أن تفتح بنو قريظة حصونها أمام جيش المشركين ليحاصر المسلمين من الخلف داخل المدينة المحاطة بالخندق من الأمام.

وتجمع اليهود في خيبر وأصبحوا كطرف كماشة يحاصر المسلمين في المدينة من الشمال ومكة وحلفاؤها طرف الكماشة الآخر الذي يحاصر المدينة من الجنوب.

فهل يجلس المسلمون في المدينة في انتظار توحد طرفي الكماشة في الهجوم عليهم، أم يخرجوا لملاقاة طرف، فيهب الطرف الآخر عليهم، فيحاصرهم.

فكانت حكمة النبي ﷺ وعبقريته العسكرية في أن بادر بالتوجه إلى مكة راغبا في سلمها راغبا في العمرة إلى بيت الله الحرام، فإن تصدت له قريش وهجمت عليه تكون سبة لها وعارا عليها بين العرب، ويكون له طريق العودة إلى المدينة، وكان النبي ﷺ يعلم أن جبن اليهود

---

(١) البخاري (كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط) ٣/ ١٩٣، رقم (٢٧٧٠). بزيادة بعض الأحداث من سيرة ابن هشام.

سيمنعهم على أي حال أن يتركوا حصونهم ويهبوا للاشتراك في المعركة أو الإغارة على المدينة؛ ولذلك فإنه ﷺ حين هم بالخروج إلى مكة عام الحديبية وَرَّى عن ذلك بخيبر؛ فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر.

وإن هادنت قريش رسول الله ﷺ تحقق له مراده وفُكَّ الحصار عن المدينة، وأصبحت خيبر مقر تجمع اليهود عزلاء بلا معين، فإن أبدت خيرا كان خيرا، وإن ناوشت أو اعتدت أو أظهرت غدرا وتربصا كان لها من جموع المسلمين ما تستحق من النكال والخزي.

وقد حدث ما حذر منه رسول الله ﷺ، فإن يهود خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان هموا وجهزوا للهجوم على المدينة أثناء غياب رسول الله ﷺ والصحابة في الحديبية، ولكنهم تراجعوا لما علموا أن رسول الله عقد هدنة مع قريش وأنه عائد إلى المدينة.

فأنزل تعالى قوله: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٠] أي كف أهل مكة عن قتالكم في الحديبية. وقيل: كف اليهود وغيرهم عن إضرار نسائكم وأولادكم بينما خرجتم إلى الحديبية. ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٠] أي تكون هذه الفعلة وهي كف أيدي الناس عنكم آية للمؤمنين، يستدلون بها على النصر.(١)

وعن قتادة (وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ): عن بيوتهم، وعن عيالهم بالمدينة، حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر، وكانت خيبر في ذلك الوجه.(٢)

وهو اختيار الطبري؛ لأن كف أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٤].

بينما يرى ابن القيم أن الآية تتناول وتشمل جميع من كان يتربص بالنبي وأصحابه حينئذ قال: " قَالَ تعالى: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ قِيلَ: أَيْدِيَ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ. وَقِيلَ: أَيْدِيَ الْيَهُودِ حِينَ هَمُّوا بِأَنْ يَغْتَالُوا مَنْ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ

(١) تفسير ابن جزي: (٢/ ٢٨٩).

(٢) تفسير الطبري طبعة دار هجر بتحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي: (٢١/ ٢٨٢).

الصّحَابَةِ مِنْهَا. وَقِيلَ: هَمُّ أَهْلِ خَيْبَرَ وَحُلَفَاؤُهُمُ الّذِينَ أَرَادُوا نَصْرَهُمْ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ. وَالصَّحِيحُ تَنَاوُلُ الْآيَةِ لِلْجَمِيعِ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قِيلَ: هَذِهِ الْفِعْلَةُ الّتِي فَعَلَهَا بِكُمْ وَهِيَ كَفّ أَيْدِي أَعْدَائِكُمْ عَنْكُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ، فَإِنّهُمْ حِينَئِذٍ كَانَ أَهْلُ مَكّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَهْلُ خَيْبَرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَسَدٌ وَغَطَفَانُ وَجُمْهُورُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، أَعْدَاءً لَهُمْ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ كَالشّامَةِ، فَلَمْ يَصِلُوا إلَيْهِمْ بِسُوءٍ، فَمِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ كَفّ أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلُوا إلَيْهِمْ بِسُوءٍ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَشِدّةِ عَدَاوَتِهِمْ، وَتَوَلّي حِرَاسَتِهِمْ وَحِفْظِهِمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَغِيبِهِمْ.(١)

وقال ابن عباس في (وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ): يعني عيينة بن حصن الفزاري وعوف بن مالك النضري ومن كان معهما، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر، والنبي ﷺ محاصر لهم، فألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين. (وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) أي ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين، فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم.(٢)

ولذلك فإن صلح الحديبية كان نصرا للمسلمين على كل حال، قال تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ ﴾ وَفِيهَا قَوْلَانِ. أَحَدُهُمَا: أَنّهُ الصُّلْحُ الّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوّهِمْ. وَالثّانِي: أَنّهَا فَتْحُ خَيْبَرَ وَغَنَائِمُهَا. جَعَلَهَا الله آيَةً لِمَا بَعْدَهَا وَجَزَاءً لِصَبْرِهِمْ وَرِضَاهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلِهَذَا خَصّ بِهَا وَبِغَنَائِمِهَا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وعن البراء بن عازب ﷺ، قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

يقول الإمام الزهري: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إنّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النّاسُ، فَلَمّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ وَأَمِنَ النّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْتَقَوْا

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: (٣/ ٢٧٨).

(٢) تفسير القرطبي طبعة دار الكتب المصرية: (١٦/ ٢٧٩).

فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تِينِك السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إلَى الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ.(١)

ولذلك فسر العلماء قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: ٢٧]

فَجَعَلَ قَبْلَ دُخُولِ الرَّسُولِ وَالمسلِمِينَ مَكَّةَ فَتْحًا قَرِيبًا، يُحَقِّقُهُ اللهُ لِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ وَفَتْحُ خَيْبَرَ.

ب ـ فتح خيبر:

وتظهر خطة الرسول ﷺ جلية في أن يَحْرم اليهود من المؤامرات التي حيكت بينهم وبين قريش في الكيد بالمسلمين والإغارة عليهم، في أنه ﷺ شَرَطَ على قريش في صلح الحديبية أن لا يتفقوا مع أي أحد يحارب رسول الله ﷺ، وهذا هو مفهوم الهدنة المنصوص عليها في الصلح.

ففي السنة السادسة للهجرة وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ إلى الحديبية، جمع سلام بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير وقد آلت إليه رئاسة يهود خيبر، وقد كان فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ وَهُمُ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ، فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: إنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ.

جمع قبيلة غطفان وقبائل أخرى من المشركين، وأعد جيشا قويا لمحاربة المسلمين.

وأثار الفتن والقلائل وناوش المسلمين، فَقُتِلَ، فاختار أهل خيبر أسير بن زارم رئيسا لهم فسعى إلى الحرب وحرض القبائل العربية ضد المسلمين.

فبادر رسول الله ﷺ إلى عمل يستميله به ويكف عن المسلمين عداوته فوجَّه إليه وفداً على رأسهم عبد الله بن رواحة، وبعد أن كلَّموه وافق على السير معهم إلى المدينة ومعه جماعة من اليهود، ولكن أسير ندم في الطريق وحاول الغدر بعبد الله بن رواحة وقتله، وبعدما اشتبك الفريقان قتله المسلمون هو وجماعته.

---

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٣٢٢).

ولقد أرسلت خيبر إلى قبيلة غطفان، التي هبت لقتال النبي ﷺ، يعرضون عليهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

وَلذلك بمجرد أن قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، مَكَثَ بِهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، ثُمّ خَرَجَ غَازِيًا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ اللهُ عَزّ وَجَلّ وَعَدَهُ إِيّاهَا وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَةِ.

ولَمْ يَغِبْ عَنْ خَيْبَرَ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ إِلّا جَابِرٌ فَقَسَمَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ كَسَهْمِ مَنْ حَضَرَهَا.

سبب غزوة خيبر:

يقول المباركفوري: «ولما اطمأن رسول الله ﷺ من جهة أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين: اليهود وقبائل نجد؛ حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولًا.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين ـ الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي ـ وبغطفان وأعراب البادية ـ الجناح الثالث من الأحزاب ـ وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوي وألد وأعند منهم ـ وهي قريش ـ كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب».[1]

(١) الرحيق المختوم: (١/ ٣٠٠).

وَلما أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ الخُرُوجَ إِلى خَيْبَر تَقَدَّمَ الأَعْرَابُ، الذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ السَّيرِ مَعَ الرَّسُولِ إِلى الحُدَيْبِيَةِ، يَطْلُبُونَ الإِذْنَ لَهُمْ بِالخُرُوجِ مَعَهُ إِلى خَيْبَرَ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَه ﷺ بِألاَّ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالخُرُوجِ مَعَهُ، لأَنَّهُمْ قَعَدُوا حِينَما كَانَتْ هُنَاكَ مَخَاطِرُ حَرْبٍ شَدِيدةٍ، وَهُمْ يُرِيدُونَ الخُرُوجَ الآنَ لِيَحُوزُوا المَغَانِمَ السَّهْلَةَ.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥]

وَهُمْ بِذلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ الرَّسُولَ وأَصْحَابَهُ، الذِينَ سَارُوا مَعَهُ إِلى الحُدَيْبِيَةِ، بِأَنَّ يَكُونَ لَهُمْ مَغْنَمُ خَيْبَرَ خَالِصاً لاَ يُشَارِكُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ.

ج ـ فتح مكة:

إذن جاء فتح خيبر ليفك الحصار عن شمال المدينة، ثم جاء فتح مكة بعد نقض قريش لعهدها مع رسول الله ليفك عن المدينة الحصار الجنوبي.

سبب خروج النبي ﷺ إلى مكة بجيشه فاتحًا:

خَرَجَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ حَتّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، فَأَخْبَرُوهُ بما أصابهم من اعتداء بني بكر عليهم وما أعملوه فيهم من قتل ونهب ـ وكانت بنو خزاعة قد دخلت في حلف النبي ﷺ في صلح الحديبية ودخلت بنو بكر في حلف قريش ـ وأخبروه كذلك بِمُظَاهَرَةِ قُرَيْشٍ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ. ثُمّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَكّةَ.

ورفض رسول الله ﷺ ما قَدِمَ به أبو سفيان بن حرب من سعي للاعتذار ومحاولته إثناء رسول الله عن عزمه على نصرة حلفائه من خزاعة؛ وذلك أنه تأكد لرسول الله ﷺ أن قريشا لا تعرف للسلم قيمة وغلب على أهلها الحقد على الإسلام ودولته، وصارت مكة بما فيها غير مأمونة الجانب على دولة الإسلام، فجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة.

خروج النبي ﷺ إلى مكة:

خَرَجَ رسول الله لِعَشْرٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ سنة ثمان من الهجرة، فِي عَشَرَةِ آلاَفٍ مِنْ المُسْلِمِينَ.

خرج رسول الله ﷺ متواضعا لله ﷻ، ولم يظهر أي رغبة في الانتقام من أهل مكة الذين أمعنوا في إيذائه ومحاربته ومناهضة دعوته.

ولَمّا انْتَهَى إِلَى ذِي طُوًى وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِرًا (ملتحفًا) بِشُقَّةِ بُرْدٍ حِبَرَةٍ حَمْرَاءَ، وَإِنّ رَسُولَ اللهّ ﷺ لَيَضَعُ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا للهّ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ، حَتّى إنّ عُثْنُونَهُ (لحيته) لَيَكَادُ يَمَسّ وَاسِطَةَ الرّحْلِ.

ولَمّا دَخَلَ رَسُولُ اللهّ ﷺ مَكّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَى أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أبي قحافة يَقُودُهُ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللهّ ﷺ قَالَ: «هَلّا تَرَكْت الشّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ؟» شفقة منه ﷺ لكبر سنه وصعوبة سيره. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهّ هُوَ أَحَقّ أَنْ يَمْشِيَ إلَيْك مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إلَيْهِ أَنْتَ. فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ. فَأَسْلَمَ.

تَخَوّفُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ سَعْدٍ وَمَا أَمَرَ بِهِ الرّسُولُ ﷺ:

قَالَ سعد بن عبادة وكان قائد جيش الفتح: **الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُسْتَحَلّ الْحُرْمَةُ، الْيَوْمَ أَذَلّ اللهُ قُرَيْشًا.** فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهّ اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَدْرِكْهُ فَخُذِ الرّايَةَ مِنْهُ فَكُنْ أَنْتَ الّذِي تَدْخُلُ بِهَا.

وقال رسول الله ﷺ: **بل اليوم يوم المرحمة. الْيَوْمَ أَعَزّ اللهُ فِيهِ قُرَيْشًا.**

دور المرأة ومكانتها في فتح مكة:

إن المرأة المسلمة لا يستطيع أحد أن يزايد على ما منحها الإسلام إياه من مكانة رفيعة واحترام، قَدَّرَ الإسلام ذمتها الخاصة وإرادتها السياسية الكاملة.

قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ ابْنَةُ أَبِي طَالِبٍ: لَمّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكّةَ أَجَرْتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَحْمَائِي، فَأَدْخَلْتُهُمَا بَيْتًا، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا بَابًا، فَجَاءَ ابْنُ أُمّي عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَفَلّتَ عَلَيْهِمَا بِالسّيْفِ. قَالَتْ: فَأَتَيْتُ النّبِيّ ﷺ، فَلَمْ أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ فَاطِمَةَ، فَكَانَتْ أَشَدّ عَلَيّ مِنْ زَوْجِهَا. قَالَتْ: فَجَاءَ النّبِيّ ﷺ وَعَلَيْهِ أَثَرُ الْغُبَارِ، فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: يَا أُمّ هَانِئٍ، قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ، وَأَمّنّا مَنْ أَمّنْتِ. فَلَا يَقْتُلْهُمَا.

ملاحظة:

ويلاحظ في فتح مكة أمر مهم وهو أن رسول الله ﷺ لم يخرج إلى الناس من أهل مكة حتى اطمأنوا أنه لم يأمر فيهم بمكروه أو قتل أو انتقام، بل ذهب إلى بيته واغتسل ثم خرج إلى الناس، ولم يخاطبهم حتى أتى البيت فطاف به سبعًا.

قال ابن هشام: عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمّا نَزَلَ مَكّةَ، **وَاطْمَأَنّ النّاسُ؛ خَرَجَ**، حَتّى جَاءَ الْبَيْتَ فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرّكْنَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَلَمّا قَضَى طَوَافَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، فَفُتِحَتْ لَهُ فَدَخَلَهَا.

ثم قَامَ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدّعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ.

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَظّمَهَا بِالْآبَاءِ، النّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ** ﴾. ثُمّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تُرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، **أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ**. قَالَ: « **اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ**».

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ».

فَتَفَرّقَ النّاسُ إلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ.

فمنهم من آمن ومنهم من بقي على شركه، فراح رسول الله ﷺ يتألفهم ويحسن إليهم.

ثُمّ جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إلَيْهِ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: **اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السّقَايَةِ صَلّى اللهُ عَلَيْك**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟ فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ: **هَاكَ مِفْتَاحَك يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ**.

وكان رسول الله ﷺ يُقَدِّرُ حال من آمن من قريش، وكان حديث عهد بجاهلية، ومن بقي على شركه.

فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ».(١)

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: « يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ ».(٢)

وروى مَالِكٌ في موطأه عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نِسَاءً كُنَّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْلِمْنَ بِأَرْضِهِنَّ وَهُنَّ غَيْرُ مُهَاجِرَاتٍ وَأَزْوَاجُهُنَّ حِينَ أَسْلَمْنَ كُفَّارٌ مِنْهُنَّ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ.

وَكَانَتْ تَحْتَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، فَأَسْلَمَتْ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَهَرَبَ زَوْجُهَا صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مِنَ الإِسْلاَمِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَ عَمِّهِ وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ بِرِدَاءِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- أَمَانًا لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ، فَإِنْ رَضِيَ أَمْرًا قَبِلَهُ، وَإِلاَّ سَيَّرَهُ شَهْرَيْنِ.

فَلَمَّا قَدِمَ صَفْوَانُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرِدَائِهِ نَادَاهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ هَذَا وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ جَاءَنِي بِرِدَائِكَ وَزَعَمَ أَنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى الْقُدُومِ عَلَيْكَ فَإِنْ رَضِيتُ أَمْرًا قَبِلْتُهُ وَإِلاَّ سَيَّرْتَنِي شَهْرَيْنِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ ».

فَقَالَ: لاَ وَاللهِ لاَ أَنْزِلُ حَتَّى تُبَيِّنَ لِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « بَلْ لَكَ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ».

---

(١) البخاري (كتاب فرض الخمس ـ باب مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْخُمُسِ وَنَحْوِهِ).

(٢) البخاري (كتاب الحج ـ باب فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا).

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ هَوَازِنَ بِحُنَيْنٍ. فَأَرْسَلَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ يَسْتَعِيرُهُ أَدَاةً وَسِلاَحًا عِنْدَهُ فَقَالَ صَفْوَانُ: أَطَوْعًا أَمْ كَرْهًا؟ فَقَالَ: «بَلْ طَوْعًا». فَأَعَارَهُ الأَدَاةَ وَالسِّلاَحَ الَّتِي عِنْدَهُ ثُمَّ خَرَجَ صَفْوَانُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ كَافِرٌ فَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ، وَهُوَ كَافِرٌ، وَامْرَأَتُهُ مُسْلِمَةٌ، وَلَمْ يُفَرِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، حَتَّى أَسْلَمَ صَفْوَانُ وَاسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ امْرَأَتُهُ بِذَلِكَ النِّكَاحِ.

أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً. قَالَ صَفْوَانُ: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي، حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.(١)

فائدة عامة من أحداث الحديبية جميعها حتى فتح مكة:

ويستفاد من أحداث الحديبية جميعها حتى فتح مكة كيف نتعامل مع الأحداث ونترك التسرع في الحكم علي الأمور، لئلا ننزلق في مهاوي الفتنة، فتؤدي بنا إلى ما لا تحمد عقباه، في حين أنه يمكننا التغلب على ما يعتري المجتمع من مشكلات وأزمات بدراستها والوقوف على أسبابها، والصبر على غصص معالجتها، والنظر إلى مآلاتها، وهذا أحرى بأن نتغاضى عن صغائر الأمور وما يتبع ذلك من محاولات لإثارة الفتنة وإشاعة البلبلة في المجتمعات الآمنة، خاصة في أوقات ضعف الأمة وكثرة المتربصين بها.

٢ – سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة:

لقد عقد رسول الله ﷺ معاهدات كثيرة مع اليهود والنصارى خارج حدود دولة المدينة، سواء المقيمين داخل الجزيرة العربية أو خارجها، فقد عقد ﷺ اتفاقية سلمية مع نصارى نجران عام (١٠ هـ/ ٦٣١م)، ومع يهود فدك وأيْلة وتيماء (٢)، ومع بني صَخر من كنانة(٣).

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الفضائل ـ باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لاَ. وَكَثْرَةِ عَطَائِهِ).

(٢) حميد الله، "Muslim Conduct of State", p. ٢٦٦.

(٣) سيد قطب، «في ظلال القرآن» / ج ١٠ / ص ١٢٣.

وكانت تلك الاتفاقيات تضمن لهم حكما إداريا ذاتيا، واستقلالا عن دولة المدينة، وبمقتضاها كان بإمكانهم الاستمرار بتطبيق قوانينهم على أراضيهم، ولم يَرِدْ للجزية أي ذكر في هذه المعاهدات أو الاتفاقات السلمية مع أهل الكتاب.

وكانت حياة الرسول ﷺ نموذجا وقدوة في التعايش السلمي الذي يحفظ على الإنسان كرامته الإنسانية وحريته الدينية الكاملة.

فقد صَالَحَ رسولُ الله ﷺ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَقَامَهُمْ فِي شَطْرِ مَسْجِدِهِ يُؤَدُّونَ شَعَائِرَ دِينِهِمْ وَكَتَبَ لَهُمْ عَهْدًا جَاءَ فِيهِ: وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِمْ جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ الله عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، لاَ يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ عَنْ سِقِّيفَاهُ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ وَاقِفٌ عَنْ وَقْفَانِيَّتِهِ.

[وَيُرْوَى: وَلاَ وَافِهٌ عَنْ وَفْهِيَّتِهِ. وَهُوَ الْقَيِّمُ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ صَلِيبُ النَّصَارَى].

وَأَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ شُهُودًا مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَالأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

وكذلك نَصَّ فِي مُعَاهَدَتِهِ مَعَهُمْ: أَنَّ لَهُمْ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ مِنْ بِيَعِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ وَرَهْبَانِيَّتِهِمْ، لاَ يُحْشَرُونَ وَلاَ يُعْشَرُونَ وَلاَ يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَلاَ يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلاَ سُلْطَانِهِمْ وَلاَ شَيْءٌ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ وَلاَ ظَالِمِينَ.(١)

وأما العلاقات السلمية مع الحبشة، الدولة المسيحية، فقد استمرت قرونا دون معاهدة مكتوبة، وكان موقف المسلمين من الحبشة موقف الشكر والعرفان بالجميل لما قدمت للمسلمين في مهد الدعوة من إيواء للمضطهدين في مكة؛ واعتبر المسلمون الحبشة مصونة فلم يتعرضوا لها حتى في أوج قوة الدولة الإسلامية في العصر العباسي،.وذلك لأنها دولة سالمت المسلمين، نعم لم تقبل دعوته ولكنها لم تقف أمام دعوة الإسلام ولم تضطهد أهله، ولم تُغِرْ على دولته أو تناصر أعداءه.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٦، ٣٥٨. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط١/ ١٩٦٨ م.

وفي كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك اليمن قال: «وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا.[١]

٣ - سياسته ﷺ في مقابلة الوفود العربية بعد الحديبية.

إن تتبع الوفود من القبائل العربية على المدينة بعد صلح الحديبية ودراسة أحوال تلك الوفود التي وفدتْ على النَّبيِّ ﷺ يُمكنها أنْ تمدنا بكم كبير من الفهم للعلاقات البينية التي تكونت داخل النموذج المدني الذي نعم فيه المجتمع بشيء من الاستقرار أو الأمن.

وإن تدبر فقه النبي ﷺ في التعاملِ مع الناس من مختلف القبائل ذوي الطبائع المختلفة والمشارب المتباينة والأحوال المتعددة في السلوك والفهم ليمدنا بسيل من النقاط التي يمكن أن يبنى عليها الكثير في نماذج التعايش والتعامل مع الآخر، وكذلك يطلعنا على حكمة النبي وسنته في التربية والتوجيه والدعوة والإصلاح للصغير والكبير للضعيف والقوي للغني والفقير.

فإنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وانتصر على الروم في مؤتة، وأسلمت ثقيف وبايعت، جاءت الوفود إلى رسول الله ﷺ من كل حدب وصوب في الجزيرة العربية تعلن ولاءها وإيمانها.

ولقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجا نبويا كريما في تعامله ﷺ مع الوفود يمكننا الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه فقهيا ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعد النظر وجمع القلوب على الغاية وربط أفراد بأعيانهم بالمركز، بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقول نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وإداريا وسياسيا وعسكريا تعطي لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروسا تكفيه وتغنيه.[٢]

كان النبي ﷺ يجيب على أسئلة كثيرة حول سلوكيات وتصرفات شائعة بين الوفود في أرضهم وقبائلهم فكان رسول الله يحدد لهم الحلال من الحرام فيها.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٨٨.

(٢) الأساس في السنّة (٢/ ١٠١٤).

وكان يعلمهم ويحفظهم آيات من القرآن. ويقول لأصحابه: "فقِّهوا إخوانكم".

وكان يتودد إليهم بالسؤال عن أرضهم وعن شرفائهم.

وأقبلت على النبي ﷺ بعض الوفود وهي مشركة أو كتابية، ومن الوفود من رحلت عن المدينة وهي مؤثرة الشرك، كوفد نجران الذي آثر البقاء على النصرانية، وكذلك امتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدخول في الإسلام.

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية، ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم.

وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وكان يبعث دعاته في شتى الجهات؛ معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام.

لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة.

ونتعرض الآن بشيء من التفصيل لكل وفد من الوفود:

أ- وفد عبد قيس:

وعبد القيس قبيلة عظيمة، تنتسب إلى عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

كانت مواطنهم بتهامة، ثم خرجوا إلى البحرين وبها بشر كثير من بكر بن وائل وتميم، فلما نزل بها عبد القيس زاحموهم في تلك الديار وقاسموهم في المواطن، وكانت غالبيتهم على النصرانية.

- تحدث ابن عباس رضي الله عنهما عن قدومهم فقال: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوُا النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ: «مَنِ الْوَفْدُ - أَوْ مَنِ الْقَوْمُ». قَالُوا: رَبِيعَةُ. فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ - أَوْ بِالْوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى» [1].

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم، رقم (٨٧).

ففي بداية لقائه ﷺ بالوفد يسألهم عن أنفسهم؛ حتى يتيح لهم الفرصة للتعريف عن أنفسهم بالكيفية التي يريدون، وسيتكرر هذا الأمر مع الوفود في بداية لقائهم بالنبي ﷺ يسألهم عن أنفسهم.

ثم يأتي ترحيب النبي ﷺ بهم على كل حال؛ فإن وفد عبد القيس عرفوا أنفسهم على أنهم ربيعة أي من بني ربيعة، يريدون أن يعرفوا رد النبي ﷺ وقد كان مضريا، فكان ترحيب النبي ﷺ بهم نهجا نبويا سوف يتكرر مع كل الوفود، ويبشرهم النبي ﷺ ويعلي قدرهم ومكانتهم عندهم بقوله: «غير خزايا ولا ندامى».

- قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَلاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ (١).

ويظهر هنا أن النبي ﷺ سألهم عن أحوالهم وعن طريق رحلتهم إليه كيف كانت وكيف تركوا قومهم من ورائهم، فأخبروه بعدة أمور، أولا المشقة التي تحملوها في الطريق وبعد المسافة بينهم وبينه؛ وهذا إن يكشف يكشف عن عزمهم ورغبتهم الأكيدة في الوصول إلى الرسول ﷺ بعد أن آمنوا به ولم يكونوا رأوه، ومن المؤكد أنهم لم تأت بهم رهبة ولا رغبة، فإن بعدهم عن المدينة يجعلهم لا يتأثرون بما فيها، ولم يرد أن رسول الله شد جيوشا أو توعد أيا من القبائل التي جاءته وفودها.

ثم يؤكدون له أنهم تعرضوا للمخاطر في طريقهم إليه؛ فإن بينهم وبينه حي من كفار مضر، ويلاحظ أنهم يؤكدون على مسألة مضر وربيعة، نحن مؤمنو بني ربيعة وهم كفار بني مضر؛ ليتأكوا أن مؤمني بني ربيعة أحب وأقرب إلى رسول الله ﷺ من كفار بني مضر.

ثم يصرحون للنبي ﷺ بهدفهم من المجيء ورغبتهم في لقائه قالوا: ندخل به الجنة.

فهم لم يأتوا يرغبون في ذهب أو فضة وعدهم النبي ﷺ به، ولكن جاءوا لأنهم آمنوا أن اتباعهم محمدا يدخلهم الجنة.

---

(١) المصدر السابق.

- فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ. قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ». وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ وَالْمُقَيَّرِ. قَالَ: «احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ».(١)

وبعدما أنهى ﷺ تعاليمه وأوامره إليهم، والتي نوع فيها رسول الله بين الأساليب التربوية فكان تارة يستثير أذهانهم بالسؤال ويكشف عن معارفهم وتصوراتهم، ثم يأتيهم بالإجابة على شكلها التام الصحيح، وتارة يجمل إليهم الإجابة ثم يفصلها إليهم ويشرحها، وفي النهاية يأمرهم ﷺ بحفظ وصاياه وتبليغها لمن وراءهم من قومهم.

ب - وفد بني تميم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: جَاءَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِشَاعِرِهِمْ وَخَطِيبِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَادَوْا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، فَإِنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ، وَإِنَّ سَبَّنَا شَيْنٌ.

فَسَمِعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا تُرِيدُونَ؟» قَالُوا: نَحْنُ نَاسٌ مِنْ تَمِيمٍ، جِئْنَاكَ بِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا لِنُشَاعِرَكَ وَلِنُفَاخِرَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا بِالشِّعْرِ بُعِثْنَا، وَلَا بِالْفَخَارِ أُمِرْنَا، وَلَكِنْ هَاتُوا ».

فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ لِشَابٍّ مِنْ شَبَابِهِمْ: يَا فُلَانُ قُمْ فَاذْكُرْ فَضْلَكَ، وَفَضْلَ قَوْمِكَ. فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ، وَآتَانَا أَمْوَالًا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَكْثَرُهُمْ عَدَدًا، وَأَكْثَرُهُمْ سِلَاحًا، فَمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بِقَوْلٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا، وَبِفِعَالٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ فِعَالِنَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ خَطِيبَ النَّبِيِّ ﷺ: «قُمْ فَأَجِبْهُ».

---

(١) المصدر السابق.

قَالَ: فَقَامَ ثَابِتٌ فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَدَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهًا، وَأَعْظَمَ النَّاسِ أَحْلَامًا، فَأَجَابُوهُ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا أَنْصَارَهُ وَوُزَرَاءَ رَسُولِهِ، وَعِزًّا لِدِينِهِ، فَنَحْنُ نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ، وَمَنْ أَبَاهَا قَاتَلْنَاهُ، وَكَانَ رَغْمُهُ فِي اللهِ عَلَيْنَا هَيِّنًا، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

قَالَ: فَقَالَ الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ: يَا فُلَانُ، قُمْ فَقُلْ أَبْيَاتًا تَذْكُرُ فِيهَا فَضْلَكَ، وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَالَ:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا... نَحْنُ الرُّءُوسُ وَفِينَا تُقْسَمُ الرُّبُعُ

وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْمَحْلِ كُلَّهُمُ... مِنَ السَّدِيفِ إِذَا لَمْ يُؤْنِسِ الْقَزَعُ

إِذَا أَبَيْنَا فَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ... إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيَّ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ»، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ فَقَالَ: وَمَا يُرِيدُ مِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَإِنَّمَا كُنْتُ عِنْدَهُ آنِفًا؟ قَالَ: جَاءَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِشَاعِرِهِمْ وَخَطِيبِهِمْ، فَتَكَلَّمَ خَطِيبُهُمْ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ فَأَجَابَهُ، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُهُمْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْكَ لِتُجِيبَهُ، فَقَالَ حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَبْعَثُوا هَذَا الْعَوْدَ. وَالْعَوْدُ: الْجَمَلُ الْكَبِيرُ،

قَالَ: فَلَمَّا أَنْ جَاءَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا حَسَّانُ قُمْ فَأَجِبْهُ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْهُ فَلْيُسْمِعْنِي مَا قَالَ، فَقَالَ: أَسْمِعْهُ مَا قُلْتَ، فَأَسْمَعَهُ، فَقَالَ حَسَّانُ:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ وَالدِّينَ عَنْوَةً ... عَلَى رَغْمِ عَاتٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ

بِضَرْبٍ كَإِيزَاعِ الْمَخَاضِ مُشَاشَهُ ... وَطَعْنٍ كَأَفْوَاهِ اللِّقَاحِ الصَّوَادِرِ

وَسَلْ أُحُدًا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ شِعَابُهُ ... بِضَرْبٍ لَنَا مِثْلِ اللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ

أَلَسْنَا نَخُوضُ الْمَوْتَ فِي حَوْمَةِ ... إِذَا طَابَ وِرْدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ

وَنَضْرِبُ هَامَ الدَّارِعِينَ وَنَنْتَمِي ... إِلَى حَسَبٍ مِنْ جِذْمِ غَسَّانَ قَاهِرِ

فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ ... وَأَمْوَاتُنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَقَابِرِ
فَلَوْلَا حَيَاءُ اللهِ قُلْنَا تَكَرُّمًا ... عَلَى النَّاسِ بِالْخِيفَيْنِ: هَلْ مِنْ

فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: إِنِّي وَاللهِ يَا مُحَمَّدُ لَقَدْ جِئْتُ لِأَمْرٍ مَا جَاءَ لَهُ هَؤُلَاءِ، إِنِّي قَدْ قُلْتُ شِعْرًا، فَاسْمَعْهُ، قَالَ: " هَاتِ"، فَقَالَ:

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفَ النَّاسُ فَضْلَنَا ... إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَإِنَّا رُءُوسُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مَعْشَرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ
وَإِنَّ لَنَا الْمِرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ ... تَكُونُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَائِمِ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَا حَسَّانُ فَأَجِبْهُ"، قَالَ: فَقَامَ فَقَالَ:

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبَالًا بَعْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبَلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمُ ... لَنَا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وَخَادِمِ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ كُنْتَ غَنِيًّا يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْكَ مَا قَدْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسَوْهُ مِنْكَ».

قَالَ: فَكَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِ حَسَّانَ، ثُمَّ رَجَعَ حَسَّانُ إِلَى قَوْلِهِ:

وَأَفْضَلُ مَا نِلْتُمْ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَى ... رَدَافَتُنَا مِنْ بَعْدِ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
فَإِنْ كُنْتُمُ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ ... وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا للهِ نِدًّا وَأَسْلِمُوا ... وَلَا تَفْخَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ بِدَارِمِ
وَإِلَّا وَرَبِّ الْبَيْتِ مَالَتْ أَكُفُّنَا ... عَلَى رَأْسِكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ

قَالَ: فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْأَمْرُ، تَكَلَّمَ خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أَرْفَعَ صَوْتًا، وَأَحْسَنَ قَوْلًا، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ أَرْفَعَ صَوْتًا، وَأَحْسَنَ قَوْلًا، ثُمَّ دَنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا».(١)

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم ١/ ٣٣٦-٣٣٨.

فحاز السبق في إسلامه قبل قومه، ثم تبعوه بعد ذلك، وكان فأل خير لهم حين سيقت له ولهم البشرى في قوله ﷺ: «لَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا».

ج- وفد ضمامة بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ. فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ». فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَم». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: « اللَّهُمَّ نَعَمْ ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ.(١)

وفي رواية الإمام أحمد عن ابن عباس: قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَسَأُؤَدِّي هَذِهِ الْفَرَائِضَ وَأَجْتَنِبُ مَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ ثُمَّ لاَ أَزِيدُ وَلاَ أَنْقُصُ. قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى بَعِيرِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَلَّى: «إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ».(٢)

فضمام بن ثعلبة رضي الله عنه لم يتح للنبي ﷺ فرصة إلا أن يجيبه تلك الإجابات المختصرة التي تشفي غليله وتثبت أو تنفي ما جمعه من معلومات عن رسول الله ﷺ. ويظهر في لقاء النبي ﷺ به حلم النبي وعفوه وكرمه، وتحمله جفاء الناس وغلظتهم.

ثُمَّ أَتَى ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بَعِيرَهُ فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ ثُمّ خَرَجَ حَتّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِئْسَتِ اللاّتُ وَالْعُزّى. فَقَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامَ اتّقِ الْبَرَصَ وَالْجُنُونَ

(١) صحيح البخاري،كتاب العلم، باب مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ وقوله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً).

(٢) مسند أحمد (٤/ ٢١٠، ٢١١)، رقم (٢٣٨٠).

وَالْجُذَامَ. قَالَ: وَيْلَكُمْ إِنَّهُمَا مَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، فَوَاللهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا (١).

د - وفد نصارى نجران:

قدموا على النبي ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُمْ فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مسجده نحو المشرق، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: "دعوهم". فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ.

استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران في المسجد وهم على نصرانيتهم، وهم يلبسون ما يألفون من الحرير والذهب، أرادهم أن يروا صلاة المسلمين وسمت المسلمين ودين الإسلام، فلما حانت صلاتهم اتجهوا نحو المشرق وهموا بالصلاة، فلم يكن ﷺ ليزجرهم أو يطردهم من المسجد بعد أن سمح لهم بالدخول والجلوس فيه، فيكون طرده لهم صادا لهم عن الدخول في الإسلام.

ولقد استدل الفقهاء من هذه الواقعة على جَوَازُ دُخُولِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَسَاجِدَ الْمُسْلِمِينَ، وتَمْكِينُهم مِنْ صَلَاتِهِمْ بِحَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي مَسَاجِدِهِمْ أَيْضًا إِذَا كَانَ ذَلِكَ عَارِضًا، وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنِ اعْتِيَادِ ذَلِكَ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا. وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِلَّا نَصْرَانِيًّا.

فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

(١) المصدر السابق.

نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ ٦٥: ٦٨]

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَحْبَارِ: أَتُرِيدُ مِنّا يَا مُحَمّدُ أَنْ نَعْبُدَك كَمَا تَعْبُدُ النّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؟ وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ: أَوَ ذَلِكَ تُرِيدُ يَا مُحَمّدُ وَإِلَيْهِ تَدْعُونَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَعَاذَ الله أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ الله أَوْ آمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلَا أَمَرَنِي. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ ٧٩] ثُمّ ذَكَرَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ بِتَصْدِيقِهِ وَإِقْرَارِهِمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالَ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ ٨١]. (١)

وقد صَالَحَ رسولُ الله ﷺ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَقَامَهُمْ فِي شَطْرِ مَسْجِدِهِ يُؤَدُّونَ شَعَائِرَ دِينِهِمْ وَكَتَبَ لَهُمْ عَهْدًا جَاءَ فِيهِ: وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِمْ جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ الله عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، لاَ يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ عَنْ سِقِّيفَاهُ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ وَاقِفٌ عَنْ وَقْفَانِيَّتِهِ [وَيُرْوَى: وَلاَ وَافِهٌ عَنْ وَفْهِيَّتِهِ]. وَهُوَ الْقَيِّمُ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ صَلِيبُ النَّصَارَى.

وَأَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ شُهُودًا مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَالأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. (٢)

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي (٦/ ٤٢١، ٤٢٢) من رواية ابن إسحاق.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٨٨، ٣٥٨) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط١/ ١٩٦٨ م.

وكذلك نَصَّ فِي مُعَاهَدَتِهِ مَعَهُمْ: أَنَّ لَهُمْ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ مِنْ بِيَعِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ وَرَهْبَانِيَّتِهِمْ، لاَ يُحْشَرُونَ وَلاَ يُعْشَرُونَ وَلاَ يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَلاَ يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلاَ سُلْطَانِهِمْ وَلاَ شَيْءٌ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ وَلاَ ظَالِمِينَ. (١)

هـ - وَفْد تُجِيبَ:

وتجيب: بطن من كندة، وهو أشرس بن شبيب بن السكون بن كندة. كانوا يسكنون الكسر في وسط حضرموت، وكانت لهم خطة بمصر تعرف باسمهم.

وَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفْدُ تُجِيبَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا قَدْ سَاقُوا مَعَهُمْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمُ الّتِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ (وهذا يعني أنهم آمنوا بالله ورسوله وأنهم علموا الفرائض وأدوها بكل عزيمة وحب).

فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمْ وَأَكْرَمَ مَنْزِلَهُمْ. وَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله سُقْنَا إِلَيْك حَقّ الله فِي أَمْوَالِنَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوهَا فَاقْسِمُوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا قَدِمْنَا عَلَيْك إلّا بِمَا فَضَلَ عَنْ فُقَرَائِنَا.

ويظهر هنا فرح النبي ﷺ بقدوم هذا الوفد المؤمن وإكرامهم، فقالوا له: سقنا إليك حق الله في أموالنا. مما يكشف أنهم قوم يفقهون جيدًا أن ما ساقوه إنما هو حق الله وليس جباية أو ضريبة عليهم يؤدونها إلى المدينة، ويطلب رسول الله منهم أن يردوا هذه الأموال لتقسم على فقرائهم؛ ليفهموا جيدًا أن إيمانهم لا يفرض عليهم في أموالهم إلا حقًّا للفقراء والمساكين من قومهم يُعطى إليهم، فأعلموه أنهم إنما أتوه بما فضل عن حاجة فقرائهم.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله مَا وَفَدَ مِنَ الْعَرَبِ بِمِثْلِ مَا وَفَدَ بِهِ هَذَا الْحَيّ مَنْ تُجِيبَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنّ الْهُدَى بِيَدِ الله ﷻ فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا شَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ».

ولم يترك النبي ﷺ مثل هذه الفرصة التربوية حتى يوجه صاحبه ويعلمه أن ما وفد به القوم من مال ليس مقياسًا أو معيارًا لما وقر في صدورهم من الهدى، إنما من يشرح الله صدره للإيمان فهو المهتدي لا من جاء بالمال.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٦، ٣٥٨) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط١/ ١٩٦٨ م.

وَسَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَشْيَاءَ، فَكَتَبَ لَهُمْ بِهَا، وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسّنَنِ، فَازْدَادَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمْ رَغْبَةً.

وسؤال الوفد رسول الله ﷺ عن أمور الدين والقرآن والسنة أمر يتكرر، فكل وفد كان يهتم أن يحصل المعرفة بالدين من رسول الله، ولكن الجديد في وفد تجيب أنهم أكثروا السؤال حتى كتب لهم رسول الله ﷺ الإجابات، وزاد إعجابه بهم وسروره بطلبهم العلم.

وَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُحْسِنَ ضِيَافَتَهُمْ، فَأَقَامُوا أَيّامًا وَلَمْ يُطِيلُوا اللّبْثَ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَا يُعْجِبُكُمْ؟

يحسن رسول الله ﷺ ضيافة من يفد إليه، فإن هموا بالرحيل لا يتركهم حتى يسألهم عن السبب ويتأكد أنهم لم يضرهم أو يسؤهم شيء في ضيافته.

فَقَالُوا: نَرْجِعُ إِلَى مَنْ وَرَاءَنَا فَنُخْبِرُهُمْ بِرُؤْيَتِنَا رَسُولَ الله ﷺ وَكَلَامِنَا إِيّاهُ وَمَا رَدّ عَلَيْنَا.

ثُمّ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يُوَدّعُونَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بِلَالًا فَأَجَازَهُمْ بِأَرْفَعَ مَا كَانَ يُجِيزُ بِهِ الْوُفُودَ. قَالَ: " **هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟** " قَالُوا: نَعَمْ. غُلَامٌ خَلّفْنَاهُ عَلَى رِحَالِنَا هُوَ أَحْدَثُنَا سِنّا. قَالَ: " **أَرْسِلُوهُ إِلَيْنَا** ". فَلَمّا رَجَعُوا إِلَى رِحَالِهِمْ قَالُوا لِلْغُلَامِ: انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَاقْضِ حَاجَتَك مِنْهُ، فَإِنَّا قَدْ قَضَيْنَا حَوَائِجَنَا مِنْهُ وَوَدَّعْنَاهُ.

فَأَقْبَلَ الْغُلَامُ حَتّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنّي امْرُؤٌ مِنْ بَنِي أَبْذَى يَقُولُ مِنَ الرّهْطِ الّذِينَ أَتَوْك آنِفًا فَقَضَيْتَ حَوَائِجَهُمْ، فَاقْضِ حَاجَتِي يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «وَمَا حَاجَتُك؟ قَالَ: إِنّ حَاجَتِي لَيْسَتْ كَحَاجَةِ أَصْحَابِي وَإِنْ كَانُوا قَدِمُوا رَاغِبِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا مَا سَاقُوا مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، وَإِنّي وَاَللّهِ مَا أَعْمَلَنِي مِنْ بِلَادِي إلّا أَنْ تَسْأَلَ اللهَ عَزّ وَجَلّ أَنْ يَغْفِرَ لِي وَيَرْحَمَنِي وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَايَ فِي قَلْبِي.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَقْبَلَ إِلَى الْغُلَامِ: «**اللّهُمّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ**». ثُمّ أَمَرَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ بِهِ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَانْطَلَقُوا رَاجِعِينَ إِلَى أَهْلِيهِمْ ثُمّ وَافَوْا رَسُولَ الله ﷺ فِي الْمَوْسِمِ بِمِنًى سَنَةَ عَشْرٍ. فَقَالُوا: نَحْنُ بَنُو أَبْذَى. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا فَعَلَ الْغُلَامُ الّذِي أَتَانِي مَعَكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ قَطّ، وَلَا حُدّثْنَا بِأَقْنَعَ مِنْهُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ لَوْ أَنّ النّاسَ اقْتَسَمُوا الدّنْيَا مَا نَظَرَ نَحْوَهَا وَلَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا.[1]

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس (وفد تجيب): (٢/ ٣٠٨، ٣٠٩).

فقد كان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا لم يهمل ضعيفًا أو صغيرًا، ولكنه كان يهتم بكل من يفد إليه، فإن تجيب همشت الغلام وتركته على رحالها وراحوا يودعون رسول الله، فسألهم رسول الله عنه وأرسل في طلبه، فلما جاءه دعا له وأمر له بعطاء مثل ما أعطى الرجل من قومه. وأثمرت دعوة النبي ﷺ في الغلام، فلما جاء قومه بعد ذلك شهدوا له أنه خيرهم تقوى وورعا ودينا.

و - وَفْدُ ذِي مُرّةَ:

قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَفْدُ ذِي مُرَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا رَأْسُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله إنّا قَوْمُك وَعَشِيرَتُك نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي لُؤَيّ.

وقد سبق أن رسول الله ﷺ كان من هديه أن يسأل الوفد عن أنفسهم، وهنا يتضح أن وفد ذي مرة أجابوا بأن عرفوا أنفسهم بقرابتهم لرسول الله ﷺ، فهم من بني لؤي، ولؤي بن غالب بن فهر من أجداد النبي ﷺ.

فقال ﷺ لِلْحَارِثِ: "أَيْنَ تَرَكْت أَهْلَك؟" قَالَ: بِسِلَاحٍ وَمَا وَالَاهَا. قَالَ: "وَكَيْفَ الْبِلَادُ؟" قَالَ: وَاَللهِ إنّا لَمُسْنِتُونَ، مَا فِي الْمَالِ مُخّ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " اللهُمّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ ".

وقد سبق أيضا أن رسول الله ﷺ كان من هديه أن يسأل من يفد إليه عن أحوال بلادهم وقومهم، كيف هم، وكيف تركوهم، مسلمون أم لا، فقراء أم أغنياء، مسالمون أم محاربون.

وسبق أيضا أن رسول الله ﷺ كان من هديه أن يدعو لمن يفد إليه وإلى أهلهم وذويهم بالخير والنماء والبركة والإيمان.

فَأَقَامُوا أَيّامًا ثُمّ أَرَادُوا الِانْصِرَافَ إلَى بِلَادِهِمْ، فَجَاءُوا رَسُولَ الله ﷺ مُوَدّعِينَ لَهُ، فَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُجِيزَهُمْ، فَأَجَازَهُمْ بِعَشْرِ أَوَاقٍ فِضّةً، وَفَضّلَ الْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ أَعْطَاهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيّةً.

وسبق أن رسول الله ﷺ كان من هديه أن يجيز من يفد إليه بما استطاع من مؤون وخير وهدايا حينما يأتي لوداعه، والجديد هنا أن رسول الله ﷺ أكرم رئيسهم وسيدهم بأن زاده في العطاء، وذلك ليس تمييزا ولكن لما استشعره النبي ﷺ من تحمل هذا السيد بواجبات ومسئوليات ستضطره أن ينفق ضعف ما يأخذ.

وَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فَوَجَدُوا الْبِلَادَ مَطِيرَةً. فَسَأَلُوا: مَتَى مُطِرْتُمْ؟ فَإِذَا هُوَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي دَعَا رَسُولُ الله ﷺفِيهِ، وَأَخْصَبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَادُهُمْ.(١)

ز - وَفْدُ خَوْلَانَ:

خَوْلَان مخلاف من مخاليف اليمن، منسوب إلى خولان بن عمر بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ، فتح هذا المخلاف في سنة ثلاث أو أربع عشرة في أيام عمر بن الخطاب ﷺوأميره يعلى بن منية، وفي خولان كانت النار التي تعبدها اليمن.

قَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةَ عَشْرٍ وَفْدُ خَوْلَانَ وَهُمْ عَشَرَةٌ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله نَحْنُ عَلَى مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِاَللهِ عَزّ وَجَلّ، وَمُصَدّقُونَ بِرَسُولِهِ.

يظهر هنا أن رسول الله ﷺ سألهم عن هويتهم وطلب منهم أن يعرفوا أنفسهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم سفراء قومهم إلى رسول الله وأنهم مؤمنون بالله وبرسوله.

وَقَدْ ضَرَبْنَا إِلَيْك آبَاطَ الْإِبِلِ وَرَكِبْنَا حُزُونَ الْأَرْضِ وَسُهُولَهَا، وَالْمِنّةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ عَلَيْنَا، وَقَدِمْنَا زَائِرِينَ لَك.

ويظهر هنا أن رسول الله ﷺ سألهم عن رحلتهم وما واجهوه في طريقهم إليه، ومِنْ أدبِهم وإيمانِهم أنهم بعد أن بينوا له صعوبة الرحلة ومشقة الطريق أقروا أن المنة لله ولرسوله عليهم وأنهم مسرورون راغبون في زيارته ﷺوفي سبيل ذلك تهون كل الصعاب.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَمّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مَسِيرِكُمْ إِلَيّ فَإِنّ لَكُمْ بِكُلّ خَطْوَةٍ خَطَاهَا بَعِيرُ أَحَدِكُمْ حَسَنَةٌ، وَأَمّا قَوْلُكُمْ زَائِرِينَ لَك، فَإِنّهُ مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ كَانَ فِي جِوَارِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". قَالُوا: يَا رَسُولَ الله هَذَا السّفَرُ الّذِي لَا تَوَى عَلَيْهِ.

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس (وفد ذي مرة): (٢/ ٣١٦).

فبشرهم ﷺ بالخير وأن مسيرهم إليه زاد حسناتهم وبرهم، وزيارتهم له تجعلهم في جواره في الجنة.

ثُمّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَا فَعَلَ عَمٌّ أَنَسٍ ". - وَهُوَ صَنَمُ خَوْلَانَ الّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَهُ - قَالُوا: أَبْشِرْ بَدَّلَنَا اللهُ بِهِ مَا جِئْت بِهِ، وَقَدْ بَقِيَتْ مِنّا بَقَايَا - مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَعَجُوزٍ كَبِيرَةٍ - مُتَمَسِّكُونَ بِهِ وَلَوْ قَدِمْنَا عَلَيْهِ لَهَدَمْنَاهُ إنْ شَاءَ اللهُ، فَقَدْ كُنَّا مِنْهُ فِي غُرُورٍ وَفِتْنَةٍ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: "وَمَا أَعْظَمَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ؟ " قَالُوا: لَقَدْ رَأَيْتنَا أَسْنَتْنَا حَتّى أَكَلْنَا الرُّمَّةَ فَجَمَعْنَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ وَابْتَعْنَا بِهِ مِائَةَ ثَوْرٍ وَنَحَرْنَاهَا ـ لِعَمّ أَنَسٍ ـ قُرْبَانًا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَتَرَكْنَاهَا تَرِدُهَا السّبَاعُ وَنَحْنُ أَحْوَجُ إلَيْهَا مِنَ السّبَاعِ، فَجَاءَنَا الْغَيْثُ مِنْ سَاعَتِنَا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا الْعُشْبَ يُوَارِي الرّجَالَ. وَيَقُولُ قَائِلُنَا: أَنْعَمَ عَلَيْنَا عَمّ أَنَسٍ. وَذَكَرُوا لِرَسُولِ الله ﷺ مَا كَانُوا يَقْسِمُونَ لِصَنَمِهِمْ هَذَا مِنْ أَنْعَامِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَأَنّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ جُزْءًا لَهُ وَجُزْءًا للهّ بِزَعْمِهِمْ. قَالُوا: كُنّا نَزْرَعُ الزّرْعَ فَنَجْعَلُ لَهُ وَسَطَهُ فَنُسَمّيهِ لَهُ، وَنُسَمّي زَرْعًا آخَرَ حُجْرَةً للهّ، فَإِذَا مَالَتِ الرّيحُ فَالّذِي سَمّيْنَا للهّ جَعَلْنَاهُ لِعَمّ أَنَسٍ، وَإِذَا مَالَتِ الرّيحُ فَالّذِي جَعَلْنَاهُ لِعَمّ أَنَسٍ لَمْ نَجْعَلْهُ للهّ، فَذَكَرَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيّ فِي ذَلِكَ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الْأَنْعَام: ١٣٦]

قَالُوا: وَكُنَّا نَتَحَاكَمُ إلَيْهِ فَيَتَكَلّمُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "تِلْكَ الشّيَاطِينُ تُكَلّمُكُمْ".

ثم سألهم رسول الله ﷺ عما كانوا عليه من عقائد فاسدة وعبادات منحرفة، حيث كانوا يعبدون صنمًا يقدمون له ذبائحهم وحرثهم وهو لا ينفع ولا يضر، فبين لهم ﷺ فساد ما كانوا عليه وضلاله.

وَسَأَلُوهُ عَنْ فَرَائِضِ الدّينِ فَأَخْبَرَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ لِمَنْ جَاوَرُوا، وَأَنْ لَا يَظْلِمُوا أَحَدًا.

قَالَ: " فَإِنّ الظّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". ثُمّ وَدّعُوهُ بَعْدَ أَيّامٍ وَأَجَازَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَلَمْ يَحُلّوا عُقْدَةً حَتّى هَدَمُوا عَمّ أَنَسٍ.(١)

وفي النهاية لا يفوتهم أن يسألوا رسول الله ﷺ كما سألته الوفود من قبلهم عن الدين وعن الفرائض، فأخبرهم بجوامع كلمه كليات قَصَدَ الشرعُ إلى تحقيقها وهي العدل والأمانة والوفاء وحسن الجوار والتعايش.

ح - وَفْدُ بني مُحَارِبٍ:

قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَفْدُ بني مُحَارِبٍ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ، وَكَانُوا أَغْلَظَ الْعَرَبِ وَأَفَظَّهُمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي تِلْكَ الْمَوَاسِمِ أَيّامَ عَرْضِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله، فَجَاءَ رَسُولَ الله ﷺ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ نَائِبِينَ عَمّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ فَأَسْلَمُوا، وَكَانَ بِلَالٌ يَأْتِيهِمْ بِغَدَاءٍ وَعَشَاءٍ إِلَى أَنْ جَلَسُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا مِنَ الظّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ، فَعَرَفَ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَمَدَّهُ النّظَرَ فَلَمّا رَآهُ الْمُحَارِبِيّ يُدِيمُ النّظَرَ إِلَيْهِ قَالَ: كَأَنّك يَا رَسُولَ الله تُوهِمُنِي؟ قَالَ: " لَقَدْ رَأَيْتُك ". قَالَ الْمُحَارِبِيّ: أَيْ وَاَللهِ لَقَدْ رَأَيْتنِي وَكَلّمْتنِي وَكَلّمْتُك بِأَقْبَحِ الْكَلَامِ، وَرَدَدْتُك بِأَقْبَحِ الرّدّ بِعُكَاظٍ، وَأَنْتَ تَطُوفُ عَلَى النّاسِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " نَعَمْ ". ثُمّ قَالَ الْمُحَارِبِيّ: يَا رَسُولَ الله مَا كَانَ فِي أَصْحَابِي أَشَدّ عَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ وَلَا أَبْعَدُ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنّي، فَأَحْمَدُ اللهَ الّذِي أَبْقَانِي حَتّى صَدّقْتُ بِك، وَلَقَدْ مَاتَ أُولَئِكَ النّفَرُ الّذِينَ كَانُوا مَعِي عَلَى دِينِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنّ هَذِهِ الْقُلُوبَ بِيَدِ الله ﷻ". فَقَالَ الْمُحَارِبِيّ: يَا رَسُولَ الله اسْتَغْفِرْ لِي مِنْ مُرَاجَعَتِي إِيّاكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنّ الْإِسْلَامَ يَجُبّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ ". ثُمّ انْصَرَفُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ.(٢)

وفي واقعة هذا الوفد نموذج لعفو رسول الله وحلمه وحسن خلقه ﷺ، فإنه رأى فيمن وفد عليه رجلاً أساء إليه واعتدى عليه ورد دعوته بأقبح الرد ولكنه لم يبدأه بالكلام ولم يقل له: إنك أنت من فعل كذا وكذا. وقد عرفه النبي ﷺ.

فلما أقر الرجل بذنبه وسوء خلقه مع رسول الله، وأقر بنعمة الله ومنته عليه أن هداه للإسلام بينما مات من كان معه على الشرك؛ أخبره رسول الله بأن إسلامه محا ما كان عليه من

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس (وفد خولان): (٢/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) عيون الأثر لابن سيد الناس (وفد بني محارب): (٢/ ٣١٨).

الكفر، وأن الإسلام يفتح لك صفحة جديدة بيضاء مع الله ﷻ؛ فهدأت نفس المحاربي وسكن.

ط - وَفْدُ سَلَامَانِ:

وهو وفد سلامان بن سعد: بطن من قضاعة، من القحطانية.

قَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفْدُ سَلَامَانِ سَبْعَةُ نَفَرٍ فِيهِمْ حَبِيبُ بْنُ عَمْرٍو فَأَسْلَمُوا.

إذن فمن الوفود من وفدت مشركة ثم أسلمت بين يدي رسول الله ﷺ كوفد سلامان، ومنها من وفدت عليه مسلمة ومؤمنة كوفد تجيب، ومنها من وفدت عليه وهي مشركة ورحلت عنه وهي مشركة، رحلت بعهد للأمان والتعايش السلمي.

قَالَ حَبِيبٌ: فانتهينا إلى باب المسجد فصادفنا رسول الله ﷺ خارجا منه إلى جنازة دعي إليها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله السلام عليك. فقال رسول الله ﷺ: "وعليكم السلام. من أنتم؟ " قلنا: نحن قوم من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا.

فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: "أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد ". فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية.

وفي الواقعة أنه ﷺ خَصَّصَ دارا ينزل فيها الوفود القادمة إليه، وصفة هذه الدار واسعة، وفيها نخل، أي دار تبين للوفد تقدير النبي ﷺ وإكرامه له.

فلما سمعنا أذان الظهر خرجنا إلى الصلاة، فقمنا على باب رسول الله ﷺ حتى خرج إلى المسجد فصلى بالناس، وهو يتصفحنا، ودخل بيته فلم يلبث أن خرج فجلس في المسجد بين المنبر وبين بيته، وجلست عليه أصحابه عن يمينه وعن شماله، فرأيت رجلا هو أقرب القوم منه يكثر ما يلتفت إليه ويحدثه، فسألت عنه، فقيل: أبو بكر بن أبي قحافة. وجئنا فجلسنا تجاه وجهه وجعل الوفد يسألونه عن شرائع الإسلام، فلم يكد سائلهم يقطع حتى خشيت أن

يقوم رسول الله ﷺ، فقلت: إنا نريد ما تريد. فتبسم رسول الله ﷺ، وأسكت السائل فَقُلْت: أَيْ رَسُولِ الله مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: " الصّلَاةُ فِي وَقْتِهَا". ثُمّ ذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا.

والحوار يعكس فطنته ﷺ، فقد تبسم وفهم قصد حبيب فأسكت السائل وأعطى الفرصة لحبيب أن يسأل عن شرائع الدين وأفضل الأعمال.

وَصَلُّوا مَعَهُ يَوْمَئِذٍ الظّهْرَ وَالْعَصْرَ. قَالَ: فَكَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ أَخَفّ مِنَ الْقِيَامِ فِي الظّهْرِ، ثُمّ شَكَوْا إلَيْهِ جَدْبَ بِلَادِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ: "اللهُمّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ فِي دَارِهِمْ ". فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ارْفَعْ يَدَيْك فَإِنّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ. فَتَبَسّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إبِطَيْهِ، ثُمّ قَامَ وَقُمْنَا عَنْهُ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا، وَضِيَافَتُهُ تَجْرِي عَلَيْنَا، ثُمّ وَدّعْنَاهُ وَأَمَرَ لَنَا بِجَوَائِزَ فَأَعْطَيْنَا خَمْسَ أَوَاقٍ لِكُلّ رَجُلٍ مِنّا، وَاعْتَذَرَ إلَيْنَا بِلَالٌ. وَقَالَ: لَيْسَ عِنْدَنَا الْيَوْمَ مَالٌ. فَقُلْنَا: مَا أَكْثَرَ هَذَا وَأَطْيَبَهُ. ثُمّ رَحَلْنَا إلَى بِلَادِنَا فَوَجَدْنَاهَا قَدْ مُطِرَتْ فِي الْيَوْمِ الّذِي دَعَا فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ فِي تِلْكَ السّاعَةِ. قَالَ الْوَاقِدِيّ: وَكَانَ مَقْدَمُهُمْ فِي شَوّالٍ سَنَةَ عَشْرٍ.(١)

ي - وَفْدُ الْأَزْدِ:

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي كِتَابِ " مَعْرِفَةِ الصّحَابَةِ " عَنْ سُوَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: وَفَدْتُ سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ قَوْمِي عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ وَكَلّمْنَاهُ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ سَمْتِنَا وَزِيّنَا. فَقَالَ: " مَا أَنْتُمْ؟ " قُلْنَا: مُؤْمِنُونَ. فَتَبَسّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: "إنّ لِكُلّ قَوْلٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ؟ " قُلْنَا: خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً، خَمْسٌ مِنْهَا أَمَرَتْنَا بِهَا رُسُلُك أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا، وَخَمْسٌ أَمَرَتْنَا أَنْ نَعْمَلَ بِهَا، وَخَمْسٌ تَخَلّقْنَا بِهَا فِي الْجَاهِلِيّةِ فَنَحْنُ عَلَيْهَا الْآنَ إلّا أَنْ تَكْرَهَ مِنْهَا شَيْئًا.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "وَمَا الْخَمْسُ الّتِي أَمَرَتْكُمْ بِهَا رُسُلِي أَنْ تُؤْمِنُوا بِهَا؟" قُلْنَا: أَمَرَتْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاَللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ. قَالَ: "وَمَا الْخَمْسُ الّتِي أَمَرَتْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا "؟ قُلْنَا: أَمَرَتْنَا أَنْ نَقُولَ لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَنُقِيمَ الصّلَاةَ وَنُؤْتِيَ الزّكَاةَ وَنَصُومَ رَمَضَانَ وَنَحُجّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلًا. فَقَالَ: "وَمَا الْخَمْسُ الّتِي تَخَلّقْتُمْ بِهَا فِي الْجَاهِلِيّةِ؟ " قَالُوا: الشّكْرُ عِنْدَ الرّخَاءِ، وَالصّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالرّضَى بِمُرّ الْقَضَاءِ، وَالصّدْقُ فِي مَوَاطِنِ اللّقَاءِ، وَتَرْكُ الشّمَاتَةِ بِالْأَعْدَاءِ.

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس (وفد سلامان): (٢/ ٣٢١).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ ". ثُمّ قَالَ: "وَأَنَا أَزِيدُكُمْ خَمْسًا فَتَتِمّ لَكُمْ عِشْرُونَ خَصْلَةً، إنْ كُنْتُمْ كَمَا تَقُولُونَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَلَا تَبْنُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَلَا تَنَافَسُوا فِي شَيْءٍ أَنْتُمْ عَنْهُ غَدًا تَزُولُونَ، وَاتّقُوا اللهَ الّذِي إلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَعَلَيْهِ تُعْرَضُونَ، وَارْغَبُوا فِيمَا عَلَيْهِ تَقْدمُونَ وَفِيهِ تَخْلُدُونَ ".

فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَحَفِظُوا وَصِيّتَهُ وَعَمِلُوا بِهَا.(١)

ك - وفد ثقيف:

ثقيف: قبيلة منازلها في جبل الحجاز، بين مكة والطائف، وعلى الأصح هي حلقة وصل بين جبال الحجاز وسهول تهامة.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلَمّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَنَالُ مِنْهُ فِي حَيَاةِ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى الطّائِفِ، يَلْتَمِسُ النّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، وَالْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الله عَزّ وَجَلّ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ وَحْدَهُ.

فَلَمّا انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إلَى الطّائِفِ، عَمَدَ إلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُمْ، وَهُمْ إخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ: عَبْدُ يَالَيْل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ، فَجَلَسَ إلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَدَعَاهُمْ إلَى الله وَكَلّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ.

فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَك. وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك. وَقَالَ الثّالِثُ: وَاَللهِ لَا أُكَلّمُك أَبَدًا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ الله كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى الله مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك. فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ.

فَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُبّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ حَتّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النّاسُ.(١)

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد: (٤/ ١٨٠، ١٨١).

قال ابن عقبة: وقفوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

زاد سليمان التيمي أنه ﷺ كان إذا أذلقته الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ وَفْدُ ثَقِيفٍ. وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِمْ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ لَمّا انْصَرَفَ عَنْهُمُ اتّبَعَ أَثَرَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ، حَتّى أَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَى الْمَدِينَةِ، فَأَسْلَمَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى قَوْمِهِ بِالْإِسْلَامِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا يَتَحَدّثُ قَوْمُهُ: " إنّهُمْ قَاتِلُوك ". وَعَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ أَنّ فِيهِمْ نَخْوَةَ الِامْتِنَاعِ الّذِي كَانَ مِنْهُمْ. فَقَالَ عُرْوَةُ: يَا رَسُولَ الله أَنَا أَحَبُّ إلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ مِنْ أَبْصَارِهِمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ فِيهِمْ كَذَلِكَ مُحَبّبًا مُطَاعًا، فَخَرَجَ يَدْعُو قَوْمَهُ إلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءَ أَنْ لَا يُخَالِفُوهُ لِمَنْزِلَتِهِ فِيهِمْ، فَلَمّا أَشْرَفَ لَهُمْ عَلَى عِلّيّةٍ لَهُ وَقَدْ دَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ لَهُمْ دِينَهُ رَمَوْهُ بِالنّبْلِ مِنْ كُلّ وَجْهٍ فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ.

ثُمّ أَقَامَتْ ثَقِيفٌ بَعْدَ قَتْلِ عُرْوَةَ أَشْهُرًا، ثُمّ إنّهُمُ ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ وَرَأَوْا أَنّهُ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَقَدْ بَايَعُوا وَأَسْلَمُوا.

فَأَتّمَرُوا بَيْنَهُمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يُرْسِلُوا إلَى رَسُولِ الله ﷺ رَجُلًا، كَمَا أَرْسَلُوا عُرْوَةَ، فَكَلّمُوا عَبْدَ يَالِيلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَكَانَ سِنّ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ وَعَرَضُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَفْعَلَ، وَخَشِيَ أَنْ يُصْنَعَ بِهِ إذَا رَجَعَ كَمَا صُنِعَ بِعُرْوَةَ. فَقَالَ: لَسْت فَاعِلًا حَتّى تُرْسِلُوا مَعِي رِجَالًا، فَأَجْمَعُوا أَنْ يَبْعَثُوا مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنَ الْأَحْلَافِ، وَثَلَاثَةً مِنْ بَنِي مَالِكٍ فَيَكُونُوا سِتّةً.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم: (٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

فَخَرَجَ بِهِمْ عَبْدُ يَالِيلَ، فَلَمّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا قَنَاةً أَلْفُوا بِهَا الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، يَرْعَى فِي نَوْبَتِهِ رِكَابَ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَتْ رِعْيَتُهَا نُوَبًا عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ، فَلَمّا رَآهُمْ تَرَكَ الرِّكَابَ عِنْدَ الثَّقَفِيّينَ وَضَبَرَ يَشْتَدّ، لِيُبَشّرَ رَسُولَ الله ﷺ بِقُدُومِهِمْ عَلَيْهِ، فَلَقِيَهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ عَنْ رَكْبِ ثَقِيفٍ أَنْ قَدْ قَدِمُوا يُرِيدُونَ الْبَيْعَةَ وَالْإِسْلَامَ بِأَنْ يَشْرُطَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ شُرُوطًا، وَيَكْتُبُوا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ كِتَابًا فِي قَوْمِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلْمُغِيرَةِ: أَقْسَمْت عَلَيْك بِاَللّهِ لَا تَسْبِقْنِي إلَى رَسُولِ الله ﷺ حَتّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ. فَفَعَلَ الْمُغِيرَةُ.

فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِقُدُومِهِمْ عَلَيْهِ، ثُمّ خَرَجَ الْمُغِيرَةُ إلَى أَصْحَابِهِ فَرَوّحَ الظّهْرَ مَعَهُمْ، وَعَلّمَهُمْ كَيْفَ يُحَيّونَ رَسُولَ الله ﷺ، فَلَمْ يَفْعَلُوا إلّا بِتَحِيّةِ الْجَاهِلِيّةِ، وَلَمّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ضَرَبَ عَلَيْهِمْ قُبَّةً فِي نَاحِيَةِ مَسْجِدِهِ.(١)

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ **أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ**، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لاَ يُحْشَرُوا وَلاَ يُعْشَرُوا وَلاَ يُجَبُّوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَكُمْ أَنْ لاَ تُحْشَرُوا وَلاَ تُعْشَرُوا، وَلاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ ».(٢)

فَقَالَ النّاسُ: يَا رَسُولَ الله يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"إنَّ الْأَرْضَ لَا يُنَجِّسُهَا شَيْءٌ"**.

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: يَا رَسُولَ الله أَنْزِلْ قَوْمِي عَلَيَّ فَأُكْرِمُهُمْ فَإِنِّي حَدِيثُ الْجُرْمِ فِيهِمْ.

وَكَانَ جُرْمُ الْمُغِيرَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ فَقَدِمُوا عَلَى الْمُقَوْقَسِ، فَحَيّا بَنِي مَالِكٍ وَجَفَاهُ وَهُوَ مِنَ الْأَحْلَافِ. حتى إذا كانوا ببساق عدا عليهم وهم نيام فقتلهم، ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله ﷺ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أُخْمُسُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم: (٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧)، عيون الأثر لابن سيد الناس: (٢/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) أبو داود (كتاب الخراج ـ باب مَا جَاءَ فِي خَبَرِ الطَّائِفِ).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَسْنَا نَغْدِرُ وَلَا يَنْبَغِي لَنَا الْغَدْرُ". فَأَبَى أَنْ يَخْمُسَ أَمْوَالَهُمْ.

وَأَنْزَلَ الْمُغِيرَةُ ثَقِيفًا فِي دَارِهِ بِالْبَقِيعِ، وَهِيَ خُطَّةٌ خَطَّهَا النَّبِيّ ﷺ لَهُ، وَأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ بِخَيْمَاتٍ ثَلَاثٍ مِنْ جَرِيدٍ فَضُرِبَتْ لهم فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانُوا يَسْمَعُونَ الْقِرَاءَةَ بِاللَّيْلِ وَتَهَجَّدَ أَصْحَابِ النَّبِيّ ﷺ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الصَّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى مَنْزِلِ الْمُغِيرَةِ فَيُطْعَمُونَ وَيَتَوَضَّئُونَ، وَيَكُونُونَ فِيهِ مَا أَرَادُوا، وَهُمْ يَخْتَلِفُونَ إِلَى الْمَسْجِدِ.

فَمَكَثُوا عَلَى هَذَا أَيَّامًا يَغْدُونَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ، وَيُخَلِّفُونَ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَلَى رِحَالِهِمْ، وَكَانَ أَصْغَرَهُمْ، فَكَانَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ وَنَامُوا بِالْهَاجِرَةِ خَرَجَ فَعَمَدَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الدِّينِ وَاسْتَقْرَأَهُ الْقُرْآنَ وَأَسْلَمَ سِرًّا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَاخْتَلَفَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ مِرَارًا حَتَّى فَقِهَ وَسَمِعَ الْقُرْآنَ، وَقَرَأَ مِنَ الْقُرْآنِ سُوَرًا مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا وَجَدَ رَسُولَ الله ﷺ نَائِمًا عَمَدَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَسَأَلَهُ وَاسْتَقْرَأَهُ، وَكَتَمَ ذَلِكَ عُثْمَانُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأُعْجِبَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ سَلَّمَ بِهِ وَأَحَبَّهُ.

فَمَكَثَ الْوَفْدُ أَيَّامًا يَخْتَلِفُونَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَالنَّبِيّ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ يَالَيْل: هَلْ أَنْتَ مُقَاضِينَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى أَهْلِنَا وَقَوْمِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "نَعَمْ إِنْ أَنْتُمْ أَقْرَرْتُمْ بِالْإِسْلَامِ قَاضَيْتُكُمْ، وَإِلَّا فَلَا قَضِيَّةَ وَلَا صُلْحَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ".

قَالَ عَبْدُ يَالَيْل: أَرَأَيْت الزِّنَا؟ فَإِنَّا قَوْمٌ غُزَّابٌ بِغَرْبٍ لَا بُدَّ لَنَا مِنْهُ وَلَا يَصْبِرُ أَحَدُنَا عَلَى الْعُزْبَةِ. قَالَ: "هُوَ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

قَالَ: أَرَأَيْت الرِّبَا؟ قَالَ: "الرِّبَا حَرَامٌ". قَالَ: فَإِنَّ أَمْوَالَنَا كُلَّهَا رِبًا. قَالَ:" لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قَالَ: أَفَرَأَيْت الْخَمْرَ؟ فَإِنَّهَا عَصِيرُ أَعْنَابِنَا، لَا بُدَّ لَنَا مِنْهَا. قَالَ: "فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ الله ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ). قَالَ: فَارْتَفَعَ الْقَوْمُ وَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

فَقَالَ عَبْدُ يَالَيْل: وَيْحَكُمْ نَرْجِعُ إِلَى قَوْمِنَا بِتَحْرِيمِ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ، وَاللهِ لَا تَصْبِرُ ثَقِيفٌ عَنِ الْخَمْرِ أَبَدًا، وَلَا عَنِ الزِّنَا أَبَدًا.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ الله: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنْ يُرِدِ اللهُ بِهَا خَيْرًا تَصْبِرْ عَنْهَا، قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فَصَبَرُوا وَتَرَكُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّا نَخَافُ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَوْطَأَ الْأَرْضَ غَلَبَةً، وَنَحْنُ فِي حِصْنٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْإِسْلَامُ حَوْلَنَا فَاشٍ، وَاللهِ لَوْ قَامَ عَلَى حِصْنِنَا شَهْرًا لَمُتْنَا جُوعًا ؛ وَمَا أَرَى إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَأَنَا أَخَافُ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ مَكَّةَ.

وَكَانَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ هُوَ الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى اكْتَتَبُوا كِتَابَهُمْ. وأَسْلَمُوا وَفَرَغُوا مِنْ كِتَابِهِمْ، وَقَدْ كَانَ فِيمَا سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يَدَعَ لَهُمُ الطَّاغِيَةَ، وَهِيَ اللَّاتُ، لَا يَهْدِمُهَا ثَلَاثَ سِنِينَ، فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَا بَرِحُوا يَسْأَلُونَهُ سَنَةً سَنَةً وَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، حَتَّى سَأَلُوا شَهْرًا وَاحِدًا بَعْدَ مَقْدَمِهِمْ فَأَبَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَدَعَهَا شَيْئًا مُسَمًّى.

وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ فِيمَا يُظْهِرُونَ أَنْ يَتَسَلَّمُوا بِتَرْكِهَا مِنْ سُفَهَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَيَكْرَهُونَ أَنْ يُرَوِّعُوا قَوْمَهُمْ بِهَدْمِهَا حَتَّى يَدْخُلَهُمُ الْإِسْلَامُ فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَّا أَنْ يَبْعَثَ **أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَيَهْدِمَاهَا.**

وَقَدْ كَانُوا سَأَلُوهُ مَعَ تَرْكِ الطَّاغِيَةِ أَنْ يُعْفِيَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَنْ لَا يَكْسِرُوا أَوْثَانَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَمَّا كَسْرُ أَوْثَانِكُمْ بِأَيْدِيكُمْ فَسَنُعْفِيكُمْ مِنْهُ، وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ". (١)

وعن غطيف بن أبي سفيان قال: أتت الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف. فقال: " اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا". قالوا: يا رسول الله ادع عليهم. فقال: " اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا ". فعادوا فأسلموا، فَوُجِدُوا من صالحي الناس إسلامًا، وَوُجِدَ منهم أئمة وقادة.

وكانوا في بداية إسلامهم لا يأتون الصلاة، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إنهم لا يصلون. فقال النبي ﷺ: "دَعْهُمْ يَا عُمَرُ، فَإِنَّهُمْ سَيَسْتَحْيُونَ أَلَّا يُصَلُّوا ". فمكثوا يومهم لا يصلون والغد حتى إذا كان عند العصر صلوا بغير وضوء. فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله صلوا بلا وضوء. فقال ﷺ: "دَعْهُمْ فَإِنَّهُمْ سَيَتَوَضَّأُونَ". حتى إذا كان اليوم الثالث غسلوا وجوههم

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس: (٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، ومغازي الواقدي (٣/ ٩٦٤- ٩٦٨).

ورؤوسهم وأعناقهم وأيديهم إلى المناكب وتركوا الأرجل". فقال عمر: إنهم فعلوا كذا وكذا. فقال: " دَعْهُمْ فَإِنَّهُمْ سَيَتَوَضَّأُونَ ". وغدوا اليوم الخامس فغسلوا البطون والظهور.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عِيسَى بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ رَبِيعَةَ الثَّقَفِيّ، عَنْ بَعْضِ وَفْدِهِمْ. قَالَ: كَانَ بِلَالٌ يَأْتِينَا حِينَ أَسْلَمْنَا وَصُمْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ مَا بَقِيَ مِنْ رَمَضَانَ بِفِطْرِنَا وَسَحُورِنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَيَأْتِينَا بِالسَّحُورِ وَإِنَّا لَنَقُولُ: إِنَّا لِنَرَى الْفَجْرَ قَدْ طَلَعَ. فَيَقُولُ: قَدْ تَرَكْت رَسُولَ الله ﷺ يَتَسَحَّرُ. لِتَأْخِيرِ السَّحُورِ، وَيَأْتِينَا بِفِطْرِنَا، وَإِنَّا لَنَقُولُ: مَا نَرَى الشَّمْسَ كُلَّهَا ذَهَبَتْ بَعْدُ. فَيَقُولُ: مَا جِئْتُكُمْ حَتَّى أَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ. ثُمّ يَضَعُ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ فَيَلْتَقِمُ مِنْهَا.

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، قَالَ: كَانَ مِنْ آخِرِ مَا عَهِدَ إِلَيّ رَسُولُ الله ﷺحِينَ بَعَثَنِي على ثقيف أن قال: "يَا عُثْمَانُ تَجَاوَزْ فِي الصَّلَاةِ، وَاقْدُرِ النَّاسَ بِأَضْعَفِهِمْ؛ فَإِنّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ ".

فلما عاد الوفد إلى قومهم قالوا: فَإِنَّنَا قَدْ قَاضَيْنَاهُ وَأَعْطَانَا مَا أَحْبَبْنَاهُ وَشَرَطَ لَنَا مَا أَرَدْنَا، وَوَجَدْنَاهُ أَتْقَى النَّاسِ وَأَبَرّ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ وَأَوْفَى النَّاسِ وَأَصْدَقَ النَّاسِ وَأَرْحَمَ النَّاسِ، وَقَدْ تَرَكَنَا مِنْ هَدْمِ الرِّبّةِ، وَأَبَيْنَا أَنْ نَهْدِمَهَا، فَقَالَ: أَبْعَثُ مَنْ يَهْدِمُهَا. وَهُوَ يَبْعَثُ مَنْ يَهْدِمُهَا. فقال شَيْخٌ مِنْ ثَقِيفٍ قَدْ بَقِيَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الشِّرْكِ بَعْدُ بَقِيَّةٌ: فَذَاكَ وَاللهّ مِصْدَاقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، إِنْ قَدَرَ عَلَى هَدْمِهَا فَهُوَ مُحِقّ وَنَحْنُ مُبْطِلُونَ، وَإِنِ امْتَنَعَتْ فَفِي النَّفْسِ مِنْ هَذَا بَعْدُ شَيْءٌ.

فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ الْعَاصِ: مَتَّتْك نَفْسُك الْبَاطِلَ وَغَرَّتْك الْغُرُورَ، وَمَا الرِّبّةُ؟ وَمَا تَدْرِي الرِّبّةُ مَنْ عَبَدَهَا وَمَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا؟ كَمَا كَانَتِ الْعُزّى مَا تَدْرِي مَنْ عَبَدَهَا وَمَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا، جَاءَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَحْدَهُ فَهَدَمَهَا ؛ وَكَذَلِك إِسَافُ وَنَائِلَةُ وَهُبَلُ وَمَنَاةُ خَرَجَ إِلَيْهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَهَدَمَهَا.(١)

ومن فِقْهُ وفد ثقيف:

١ - جَوَازُ إِنْزَالِ الْمُشْرِكِ فِي الْمَسْجِدِ. وَلَا سِيّمَا إِذَا كَانَ يَرْجُو إِسْلَامَهُ، وَتَمْكِينَهُ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَمُشَاهَدَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَعِبَادَتِهِمْ.(٢)

---

(١) سيرة ابن هشام: (١/ ٤١٩).

(٢) انظر زاد المعاد ٣/ ٦٥٢.

٢ - الْمُسْتَحِقّ لِإِمْرَةِ الْقَوْمِ وَإِمَامَتِهِمْ أَفْضَلُهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَأَفْقَهُهُمْ فِي دِينِهِ.

ل - وَفْدُ طَيِّئٍ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفْدُ طَيِّئٍ وَفِيهِمْ زَيْدُ الْخَيْلِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمُوا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ ثُمّ جَاءَنِي إِلّا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ إِلّا زَيْدَ الْخَيْلِ، فَإِنّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلّ مَا فِيهِ، ثُمّ سَمّاهُ زَيْدٌ الْخَيْرُ، وَقَطَعَ لَهُ فَيْدًا وَأَرَضِينَ مَعَهُ، وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ".(١)

م - وَفْدُ الْأَشْعَرِيّينَ وَأَهْلِ الْيَمَنِ:

وعَنْ أَنَسٍ أَنّ النّبِيّ ﷺ قَالَ: "يَقْدَمُ قَوْمٌ هُمْ أَرَقّ مِنْكُمْ قُلُوبًا". فَقَدِمَ الْأَشْعَرِيّونَ فَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ غَدًا نَلْقَى الْأَحِبّةَ مُحَمّدًا وَحِزْبَهُ.(٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقّ أَفْئِدَةً وَأَضْعَفُ قُلُوبًا الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ السَّكِينَةُ فِى أَهْلِ الْغَنَمِ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاَءُ فِى الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ".(٣)

ن - وَفْدُ مُزَيْنَةَ:

عَنِ النّعْمَانِ بْنِ مُقَرّنٍ قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعمِائَةِ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، فَلَمّا أَرَدْنَا أَنْ نَنْصَرِفَ قَالَ: "يَا عُمَرُ زَوّدِ الْقَوْمَ". فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلّا شَيْءٌ مِنْ تَمْرٍ مَا أَظُنّهُ يَقَعُ مِنَ الْقَوْمِ مَوْقِعًا. قَالَ: "انْطَلِقْ فَزَوّدْهُمْ". قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِمْ عُمَرُ فَأَدْخَلَهُمْ مَنْزِلَهُ ثُمّ أَصْعَدَهُمْ إِلَى عُلّيّةٍ، فَلَمّا دَخَلْنَا إِذَا فِيهَا مِنَ التّمْرِ مِثْلُ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ مِنْهُ حَاجَتَهُمْ. قَالَ النّعْمَانُ: فَكُنْت فِي آخِرِ مَنْ خَرَجَ، فَنَظَرْتُ فَمَا أَفْقِدُ مَوْضِعَ تَمْرَةٍ مِنْ مَكَانِهَا.(٤)

---

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٥٧٧).

(٢) مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك، رقم (١٢٠٢٦) تحقيق الأرناؤوط.

(٣) مسلم (كتاب الإيمان - باب تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِيهِ وَرُجْحَانِ أَهْلِ الْيَمَنِ فِيهِ).

(٤) مسند الإمام أحمد، حديث النعمان بن مقرن، رقم (٢٣٧٤٦) تحقيق الأرناؤوط.

س - وفد دَوْس:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيّ يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ الله ﷺ بِهَا، فَمَشَى إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ الطُّفَيْلُ رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا، قَالُوا لَهُ: إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا وَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ - وَهُوَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا - فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَابْنِهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا قَدْ حَلَّ عَلَيْنَا، فَلَا تُكَلِّمْهُ وَلَا تَسْمَعْ مِنْهُ.

قَالَ: فَوَالله مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجْمَعْتُ أَنْ لَا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلِّمَهُ حَتَّى حَشَوْتُ فِي أُذُنَيَّ حِينَ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ كُرْسُفًا؛ فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ.

قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَقُمْتُ قَرِيبًا مِنْهُ فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ، فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاثْكَلْ أُمِّيَاه، وَاللهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ؟ فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ حَسَنًا قَبِلْتُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُ. قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَيْتِهِ فَتَبِعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، فَوَالله مَا بَرِحُوا يُخَوِّفُونِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِكُرْسُفٍ لِئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِيهِ فَسَمِعْتُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ.

فَعَرَضَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيَّ الْقُرْآنَ، فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ، فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله إِنِّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَإِنِّي رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ فَدَاعِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ عَوْنًا لِي عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. فَقَالَ: اللهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً. قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَى قَوْمِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَّةٍ تُطْلِعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيَّ مِثْلَ الْمِصْبَاحِ، قُلْتُ: اللهُمَّ فِي غَيْرِ وَجْهِي إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينِهِمْ. قَالَ: فَتَحَوَّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ، وَأَنَا أَنْهَبِطُ إِلَيْهِمْ مِنَ الثَّنِيَّةِ حَتَّى جِئْتُهُمْ وَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا نَزَلْتُ أَتَانِي أَبِي وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا فَقُلْتُ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَتِ فَلَسْتَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْكَ. قَالَ: لِمَ يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: قَدْ أَسْلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ. قَالَ: يَا بُنَيَّ فَدِينِي دِينُكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: اذْهَبْ فَاغْتَسِلْ وَطَهِّرْ ثِيَابَكَ ثُمَّ تَعَالَ حَتَّى أُعَلِّمَكَ مَا عَلِمْتُ. قَالَ: فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ ثُمَّ جَاءَ فَعَرَضْتُ

عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ، ثُمّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي فَقُلْتُ لَهَا: إلَيْكِ عَنّي فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتِ مِنّي. قَالَتْ: لِمَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي؟ قُلْتُ: فَرّقَ الْإِسْلَامُ بَيْنِي وَبَيْنَك، أَسْلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمّدٍ. قَالَتْ: فَدِينِي دِينُك. قَالَ قُلْتُ: فَاذْهَبِي فَاغْتَسِلِي. فَفَعَلَتْ ثُمّ جَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ، ثُمّ دَعَوْتُ دَوْسًا إلَى الْإِسْلَامِ فَأَبْطَئُوا عَلَيّ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إنّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزّنَى، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: " اللهُمّ اهْدِ دَوْسًا ". ثُمّ قَالَ: **"ارْجِعْ إلَى قَوْمِك فَادْعُهُمْ إلَى الله وَارْفُقْ بِهِمْ"**. فَرَجَعْتُ إلَيْهِمْ فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إلَى الله، ثُمّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَرَسُولُ الله ﷺ بِخَيْبَرَ فَنَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ، ثُمّ لَحِقْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ بِخَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ.(١)

٤ – سياسته ﷺ في إرسال الرسائل الدعوية إلى العالمين:

جاءت رسالة الإسلام عالمية لم تتوقف عند حدود مكة أو العرب فقط بل شملت العالم كله تصديقا لقول الله تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا** ۝١ ﴾ [الفرقان : ١]، وتحقيقا لعالمية الإسلام، التي تأكدت في آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨] ومثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل بعثني رحمة للناس كافة ».(٢)

وهكذا جاءت رسائل رسول الله ﷺ وسياسته ﷺ في إرسالها محققة لهذا المبدأ.

وتلكم بعضا من رسائل النبي ﷺ للملوك والأمراء:

١ ـ رسالته ﷺ إلى ملك اليمن:

بعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قَدِمَ كتابُ ملوكِ حِمْيَر، وهم الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرَّهَاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٦٠) تحقيق عبد المعطي قلعجي.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٤/ ٣٩١.

فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بَيَّنَ فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطي فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجالاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل، وجعله على الكورة العلياء من جهة عَدَن بين السَّكُون والسَّكَاسِك، وكان قاضيًا وحاكمًا في الحروب، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس.

وبعث أبا موسي الأشعري ﷺ على الكورة السفلي: زُبَيْد ومأرب وَزَمَع والساحل، وقال: « يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا » (١).

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ، أما أبو موسي الأشعري ﷺفقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

٢ - رسالته ﷺإلى هِرَقْلَ:

أرسل النبي ﷺ كتابا يحمله دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى هرقل ملك الروم ، وقال فيه: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّى أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). (٢)

وبعدها أَرْسَلَ هرقل إِلَى أبي سفيان بن حرب وهو فِى رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ - فِى الْمُدَّةِ الَّتِى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِى مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّى، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٨)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣).

(٢) عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ٣٣٤.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّى سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِى فَكَذِّبُوهُ.

ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لاَ. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِى مُدَّةٍ لاَ نَدْرِى مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قال: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قال: يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ هرقل لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِى نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَىَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّى أَعْلَمُ أَنِّى أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ. (١)

(١) صحيح البخاري، باب بدء الوحي، رقم (٧).

٣ - رسالته ﷺ إلى كِسْرَى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللهِ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْت فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ.

فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مَزَّقَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ". وقد كان كما قال.(١)

٤ - رسالته ﷺ إلى النَّجَاشِيّ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ أَسْلِمْ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ اللهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي؛ فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْت فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

وَبَعَثَ بِالْكِتَابِ مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ، فَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ عَمْرًا قَالَ لَهُ: يَا أَصْحَمَةَ إِنَّ عَلَيَّ الْقَوْلَ وَعَلَيْكَ الِاسْتِمَاعَ، إِنَّك كَأَنَّك فِي الرِّقَّةِ عَلَيْنَا وَكَأَنَّا فِي الثِّقَةِ بِك مِنْك؛ لِأَنَّا لَمْ نَظُنَّ بِك خَيْرًا قَطّ إِلَّا نِلْنَاهُ، وَلَمْ نَخَفْك عَلَى شَيْءٍ قَطّ إِلَّا أَمِنَّاهُ، وَقَدْ أَخَذْنَا الْحُجَّةَ عَلَيْك مِنْ فِيك، الْإِنْجِيلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَك شَاهِدٌ لَا يُرَدّ وَقَاضٍ لَا يَجُورُ، وَفِي ذَلِكَ مَوْقِعُ الْحَزّ وَإِصَابَةُ الْمَفْصِلِ، وَإِلَّا فَأَنْتَ فِي هَذَا النَّبِيّ الْأُمِّيّ كَالْيَهُودِ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيّ ﷺ رُسُلَهُ إِلَى النَّاسِ فَرَجَاك لِمَا لَمْ يَرْجُهُمْ لَهُ، وَأَمِنَك عَلَى مَا خَافَهُمْ عَلَيْهِ بِخَيْرِ سَالِفٍ وَأَجْرٍ يُنْتَظَرُ.

فَقَالَ النَّجَاشِيّ: أَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّهُ النَّبِيّ الْأُمِّيّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَنَّ بِشَارَةَ مُوسَى بِرَاكِبِ الْحِمَارِ كَبِشَارَةِ عِيسَى بِرَاكِبِ الْجَمَلِ، وَأَنَّ الْعِيَانَ لَيْسَ بِأَشْفَى مِنَ الْخَبَرِ.

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٣٢٨).

ثُمّ كَتَبَ النّجَاشِيّ جَوَابَ كِتَابِ النّبِيّ ﷺ: "بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ إِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ الله مِنَ النّجَاشِيّ أَصْحَمَةَ سَلَامٌ عَلَيْك يَا نَبِيّ الله مِنَ الله وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، اللهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ، أَمّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُك يَا رَسُولَ الله فِيمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى، فَوَرَبّ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إنّ عِيسَى لَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ ثُفْرُوقًا (عِلَاقَةً مَا بَيْنَ النّوَاةِ وَالْقِشْرِ)، إنّهُ كَمَا ذَكَرْت، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بُعِثْت بِهِ إلَيْنَا، وَقَدْ قَرّبْنَا ابْنَ عَمّك وَأَصْحَابَهُ، فَأَشْهَدُ أَنّك رَسُولُ الله صَادِقًا مُصَدّقًا، وَقَدْ بَايَعْتُك وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمّك وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ للهّ رَبّ الْعَالَمِينَ ".

وتوفي النّجَاشِيّ سَنَةَ تِسْعٍ، وَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَوْتِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَخَرَجَ بِالنّاسِ إلَى الْمُصَلّى فَصَلّى عَلَيْهِ وَكَبّرَ أَرْبَعًا.(١)

٥ - رسالته ﷺ إلى المُقَوْقِسِ:

وَكَتَبَ إلَى الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيّةِ:

بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتّبَعَ الْهُدَى، أَمّا بَعْدُ فَإِنّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِك اللهُ أَجْرَك مَرّتَيْنِ؛ فَإِنْ تَوَلّيْت فَإِنّ عَلَيْكَ إثْمَ الْقِبْطِ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ ٦٤].

وَبَعَثَ بِهِ مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: إنّهُ كَانَ قَبْلَك رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنّهُ الرّبّ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، فَانْتَقَمَ بِهِ ثُمّ انْتَقَمَ مِنْهُ، فَاعْتَبِرْ بِغَيْرِك وَلَا يَعْتَبِرُ غَيْرُك بِكَ.

فَقَالَ: إنّ لَنَا دِينًا لَنْ نَدَعَهُ إلّا لِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. فَقَالَ حَاطِبٌ: نَدْعُوك إلَى دِينِ الله وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْكَافِي بِهِ اللهُ فَقَدْ مَا سِوَاهُ، إنّ هَذَا النّبِيّ دَعَا النّاسَ فَكَانَ أَشَدّهُمْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ وَأَعْدَاهُمْ لَهُ الْيَهُودُ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ النّصَارَى، وَلَعَمْرِي مَا بِشَارَةُ مُوسَى بِعِيسَى إلّا كَبِشَارَةِ

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس: (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

عِيسَى بِمُحَمّدٍ، وَمَا دُعَاؤُنَا إيّاكَ إلَى الْقُرْآنِ إلّا كَدُعَائِك أَهْلَ التّوْرَاةِ إلَى الْإِنْجِيلِ، وَكُلّ نَبِيّ أَدْرَكَ قَوْمًا فَهُمْ مِنْ أُمّتِهِ، فَالْحَقّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَأَنْتَ مِمّنْ أَدْرَكَهُ هَذَا النّبِيّ، وَلَسْنَا نَنْهَاك عَنْ دِينِ الْمَسِيحِ وَلَكِنّا نَأْمُرُك بِهِ.

فَقَالَ الْمُقَوْقِسُ: إنّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ هَذَا النّبِيّ فَوَجَدْتُهُ لَا يَأْمُرُ بِمَزْهُودٍ فِيهِ وَلَا يَنْهَى عَنْ مَرْغُوبٍ فِيهِ، وَلَمْ أَجِدْهُ بِالسّاحِرِ الضّالّ، وَلَا الْكَاهِنِ الْكَاذِبِ، وَوُجِدَتْ مَعَهُ آيَةُ النّبُوّةِ بِإِخْرَاجِ الْخَبْءِ وَالْإِخْبَارِ بِالنّجْوَى، وَسَأَنْظُرُ.

وَأَخَذَ كِتَابَ النّبِيّ ﷺ فَجَعَلَهُ فِي حُقّ مِنْ عَاجٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إلَى جَارِيَةٍ لَهُ، ثُمّ دَعَا كَاتِبًا لَهُ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيّةِ، فَكَتَبَ إلَى رَسُولِ الله ﷺ: بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ لِمُحَمّدِ بْنِ عَبْدِ الله مِنَ الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَيْك، أَمّا بَعْدُ فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَك وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُو إلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنّ نَبِيّا بَقِيَ وَكُنْتُ أَظُنّ أَنّهُ يَخْرُجُ بِالشّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَك وَبَعَثْتُ إلَيْك بِجَارِيَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ، وَبِكِسْوَةٍ، وَأَهْدَيْتُ إلَيْك بَغْلَةً لِتَرْكَبَهَا وَالسّلَامُ عَلَيْك.

وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَمْ يُسْلِمْ.

وَالْجَارِيَتَانِ هما مَارِيَةُ وَسِيرِينُ، وَالْبَغْلَةُ دُلْدُلُ بَقِيَتْ إلَى زَمَنِ مُعَاوِيَةَ.(١)

٦ - رسالته ﷺ إلى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى عَامِلِ الْبَحْرَيْنِ:

ذَكَرَ الْوَاقِدِيّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: وَجَدْت هَذَا الْكِتَابَ فِي كُتُبِ ابْنِ عَبّاسٍ بَعْدَ مَوْتِهِ فَنَسَخْته فَإِذَا فِيهِ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ إلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، وَكَتَبَ إلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إلَى الْإِسْلَامِ، فَكَتَبَ الْمُنْذِرُ إلَى رَسُولِ الله ﷺ أَمّا بَعْدُ يَا رَسُولَ الله فَإِنّي قَرَأْت كِتَابَك عَلَى أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَحَبّ الْإِسْلَامَ وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ، وَبِأَرْضِي مَجُوسٌ، وَيَهُودُ، فَأَحْدِثْ إلَيّ فِي ذَلِكَ أَمْرَك.

فَكَتَبَ إلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ: بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله إلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إلَيْك اللهَ الّذِي لَا إلَهَ إلّا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَأَنّ مُحَمّدًا

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس: (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣).

عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمّا بَعْدُ فَإِنّي أُذَكِّرُكَ اللهَ عَزّ وَجَلّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ، وَإِنّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي وَيَتّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ فَقَدْ نَصَحَ لِي، وَإِنّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيْرًا، وَإِنّي قَدْ شَفَّعْتُكَ فِي قَوْمِك فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذّنُوبِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِك، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ.(١)

وقال المنذر بن ساوى للعلاء بن الحضرمي: قَدْ نَظَرْت فِي هَذِهِ الْأَمْرِ الّذِي فِي يَدِي، فَوَجَدْته لِلدّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، وَنَظَرْت فِي دِينِكُمْ فَوَجَدْته لِلْآخِرَةِ وَالدّنْيَا، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ قَبُولِ دِينٍ فِيهِ أُمْنِيَةُ الْحَيَاةِ وَرَاحَةُ الْمَوْتِ، وَلَقَدْ عَجِبْت أَمْسِ مِمّنْ يَقْبَلُهُ وَعَجِبْت الْيَوْمَ مِمّنْ يَرُدّهُ، وَإِنّ مِنْ إعْظَامِ مَنْ جَاءَ بِهِ أَنْ يُعَظّمَ رَسُولُهُ، وَسَأَنْظُرُ.(٢)

ولقد كان النبي ﷺ يخاطب كل ملك أو أمير قبيلة بما يتناسب معه، وبما يعرف عند علماء البلاغة بمراعاة مقتضى الحال، فيختار كلماته المفعمة باللين والرحمة، فتقع من عقل المتلقي بمكان قبل قلبه، فينجذب بتأثير الرفق والحكمة مع نور النبوة.

٥ – سياسته ﷺ في تجنب الحروب وسرعة إنهائها.

فقد أمرنا الشرع الإسلامي بالأخذ بالظاهر وعدم التفتيش عن قلوب الناس، ففي أثناء الجهاد لو أظهر أحد المقاتلين الشهادة عصم دمه وأمن، ودليل ذلك:

أ- عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِى فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَىَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا. ثُمَّ لاَذَ مِنِّى بِشَجَرَةٍ فَقَالَ: أَسْلَمْتُ للهِ. أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تَقْتُلْهُ». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِى، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، أَفَأَقْتُلُهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لاَ تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِى قَالَ ».(٣)

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٦٠٠.

(٢) السهيلي: الروض الأنف ٤/ ٣٩٠.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الإيمان ـ باب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) ١/ ٥٤، رقم ٢٨٤.

ب- وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ ». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ». فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللهِ لاَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ. يَعْنِي أُسَامَةَ قَالَ قَالَ رَجُلٌ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله) فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَة.[١]

ج - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ فقد قرأه نافع وابن عامر وحمزة وخلف: "السَّلَمَ". بدون ألف بعد اللام وهو ضدُّ الحرْبِ، ومعنى أَلْقَى السَّلَمَ أَظْهَرَهُ بينكم كأَنَّهُ رماه بينهم. وقرأ البقية «السَّلام» بالألف، وهو مشترك بين معنى السلم ضِدِّ الْحَرْبِ ومعنى تحية الإسلام، فهي قول: السلام عليكم.[٢]

ومقتضى الإطلاق أن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله أو قال إني مسلم يحكم له بحكم الإسلام؛ لأن قوله تعالى: (لَمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا)

وإذا فسر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ بالتحية، فلا مانع أيضا؛ لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده، ويحتمل أن يراد به الانحياز والترك. فإن قال: سلام عليكم، فلا ينبغي أن يقتل أيضا حتى يعلم ما وراء هذا؛ لأنه موضع إشكال.

ولا يكفي في رأي مالك أن يقول: أنا مسلم أو أنا مؤمن، أو أن يصلي، حتى يتكلّم بالكلمة العاصمة التي علّق النّبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ».[٣]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٥/ ١٦٧. الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

(٣) وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ٥/ ٢١٩.

وقال الإمام الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجبُّ ما قبله، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل ".(١)

ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا.

وقال ابن العربي في «أحكامِه»: روى الترمذيُّ وغيرُهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا: لاَ إله إلاَّ اللهَّ، فإذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دَمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهَّ »، ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية:٢١ – ٢٢] مفسِّراً معنى الآيةِ وكاشفًا خفاءَ الخفاءِ عنها، المعنى: إذا قال الناسُ: لا إله إلا اللهَّ فَلَسْتَ بمسلَّطٍ على سَرَائِرِهم وإنما عَلَيْكَ الظاهِرُ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يُطَالَبُ لَا بِالظَّاهِرِ وَلَا بِالْبَاطِنِ، فَلَمَّا اسْتَوْلَى اللهُّ بِأَمْرِهِ وَتَكْلِيفِهِ الْقِتَالَ عَلَى الظَّاهِرِ وَكَلَ سرائرَهم إلى اللهَّ تعالى، وهذا الحديثُ صحيحُ المعنى، واللهَّ أعلم، انتهى.(٢)

ويرى ابن عاشور أن الآية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) فيها نفي الإكراه، خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تُكرهوا أحدا على اتباع الإسلام قَسْرًا، وجَيءَ بنفي الجنس لقصد العموم نصا.

وهو يرى أنه قد تقرر في صدر الإسلام قتال المشركين على الإسلام، ويستدل على ذلك بالحديث: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها".

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَابٌ: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، رقم (٢٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الْأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، رقم (٣٢).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: (٤/ ٣٨٤).

فهو يرى أن الحديث فيه أمر في صدر الإسلام بقتال المشركين على الإسلام.

وهو يرى أن الآية (لا إكراه في الدين) نزلت بعد فتح مكة واستخلاص بلاد العرب، فهي ناسخة، نسخت حكم القتال على قبول الكافرين الإسلام، وكذلك فهي ناسخة للحديث.

يقول: كَمَا نُسِخَ حَدِيثُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ». هَذَا مَا يَظْهَرُ لَنَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.(١)

وليس في الحديث أمر بقتال المشركين لأجل إكراههم على الإسلام، ولا يمكن القول أنه في زمنٍ من الأزمان كان هناك إكراه في دين الله ثم نُسِخَ، وآيات القتال لم تَنْسَخ آية النهي عن الإكراه ولا العكس، بل الإكراه ممتنع في كل وقت وكل مكان، في السلم وفي الحرب، والقتال إنما هو لمن قاتلنا واعتدى علينا، فالجهة منفكة.

والحديث إنما هو تحديد لغاية يتوقف عندها القتال مهما كانت أسبابه، فهو حديث رحمة وتسامح، وليس كما اشتبه على البعض أنه يحدد غاية يستمر من أجلها القتال.

قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار: قَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الِاقْتِصَارُ عَلَى الشَّهَادَتَيْنِ كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، بَلْ صَرَّحُوا بِتَوَاتُرِهِ كَمَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، وَهُوَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ".

وَفِي بَعْضِهَا الِاقْتِصَارُ عَلَى كَلِمَةِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْفَاظِ فِي مَعْنَاهَا وَاحِدٌ، وَهُوَ تَرْكُ الْكُفْرِ وَالدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ، وَلِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ صِيغَةٌ وَعُنْوَانٌ يُكْتَفَى بِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلَا سِيَّمَا مَوَاقِفُ الْقِتَالِ، وَهُوَ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ. وَقَدْ يُكْتَفَى مِنَ الْمُشْرِكِ بِكَلِمَةِ: " لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣/ ٢٧.

اللهُ "؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَهَا، وَهِيَ أَوَّلُ مَا دُعُوا إِلَيْهِ، بَلْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺعَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَتْلَ مَنْ قَتَلَ مِنْ بَنِي جَذِيمَةَ بَعْدَ قَوْلِهِمْ "صَبَأْنَا". وَقَالَ: "اللهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ". وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعَبِّرُونَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ فَيَقُولُونَ: صَبَأَ فُلَانٌ. إِذَا أَسْلَمَ، وَالْحَدِيثُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ.

وإِنَّهُ ـ أي الحديث ـ وَارِدٌ فِي بَيَانِ الْغَايَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا قِتَالُ مَنْ يُقَاتِلُنَا مِنَ الْكُفَّارِ. فَلَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ بَيَانُ مَا يَصِيرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ كَافِرًا.(١)

د- وكذلك جاء الإسلام ليقر مبدأ السلام بين الشعوب والأمم، مقررًا أن السلام هو الأصل والحرب هي الاستثناء ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

وفي سبيل ذلك دعا إلى تجنب ويلات الحروب والنزاعات، وأبان عن كراهية النفس للقتال ابتداء، وإن كان واجبًا ودفاعًا، فقال سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال أيضًا: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧].

ورغم ذلك لم يتغاض عن وضع قوانين للحرب في حالة وقوعها، وجعل الحرب في المقام الأول دفاعية وليست هجومية، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وفي غمار الحروب يسقط القتلى والجرحى من الأطراف المتنازعة، كما يقع بعض المقاتلين في الأسر، وقد وضع الإسلام أسس التعامل مع كل حالة من هذه الحالات، وأهمها أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث أميرا على جيش أوصاه ومن معه من المسلمين بقوله: "لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا شيخا".(٢)

---

(١) تفسير المنار ١٠/ ١٥٣.

(٢) الترمذي ٥/ ٤٤٧.

وقال يوم فتح مكة: «ألا لا يقتل مدبر، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن».[١] ولذلك كان ديدن المسلمين في قتالهم أنهم لا يتبعون فارا هاربا من المعركة ، ولا يقتلون أسيرا استسلم، بل لا يقطعون شجرا، ولا يردمون بئرا ولا يهدمون بيتا.

وقد حث الإسلام على معاملة الأسير معاملة كريمة لا تهان فيها كرامته ولا تنتهك حرمته، دون اعتبار لاختلاف الدين أو كونه من الأعداء، وعد تلك المعاملة من صفات الأبرار، حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٧]، وأوصى رسول الله ﷺ أصحابه بحسن معاملة الأسرى فقال: «استوصوا بالأسارى خيرا».[٢]، وبهذا الأمر حول الإسلام غريزة الانتقام من العدو الأسير إلى أداة فضل ورحمة ، فلم يقتصر على النهي عن تعذيبه أو تجويعه، بل امتد إلى الحث على الإحسان إليه وإكرامه ومساواته بالمسكين واليتيم، وبهذا تتحول أحد تبعات الحروب، رغم ضراوتها وقسوتها، إلى عبادة يرجو صاحبها رضا الله عز وجل ويصبح بها من الأبرار.

وفي الوقت الذي كانت الدول والممالك منْ حول دولة الإسلام تقتل الأسير أو تستعبده أو تهينه، وضع الإسلام القواعد والأسس التي يحمي بها الأسير ويصون كرامته وإنسانيته ويرفع الظلم عن المظلومين وينشر العدل والرحمة بين الناس، وينقل الإنسان –كل الإنسان– من المعاملة المهينة التي سادت في عصور الجهل ويرقى به إلى السلوك الإنساني القويم الذي لا فضل فيه لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

فإن الإسلام بنصوصه القطعية في القرآن والسنة، وبتطبيقاته الفعلية والتقريرية من الرسول ﷺ لتعطي العالم أجمع دروسا حضارية في معاملة الأسرى، سبقت بها المعاهدات الدولية المنوطة بحماية حقوق الأسرى بأربعة عشر قرنا، مؤكدة أن الإسلام جاء رحمة للعالمين ولنشر قيم التسامح إلى يوم الدين.

---

(١) ابن أبي شيبة ٦/ ٤٩٨.

(٢) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٩٣.

ومن تطبيقات ذلك أيضا أن النبي ﷺ أعطى أسيرا لأبي الهيثم بن التيهان وأوصاه به خيرا فقال له: إن رسول الله ﷺ أوصاني بك خيرا، فأنت حر لوجه الله.(١)

وبعد أن نصر الله ﷻ المسلمين في غزوة بدر وقع في الأسر سبعون أسيرا من قريش، عاملهم الرسول ﷺ معاملة طيبة، وأمر أصحابه بحسن معاملتهم، يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب وكان في أسرى بدر: كنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا، فكانوا إذا قدموا طعامًا خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة إلا نفحني بها ؛ قال: فأستحي فأردها على أحدهما، فيردها على ما يمسها.(٢)

كذلك حث الرسول ﷺ الصحابة علي إكرام الأسرى فقبل الفداء من بعض الأسرى، ومن لم يستطع دفع الفدية، قبل منه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، وعفا عن بعضهم، تحقيقًا لأمر الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

وقد قدم لنا رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في معاملة الأسري في المواطن كلها، ففي غزوة بدر أنكر رسول الله ﷺ على بعض الصحابة عندما ضربوا غلامين من قريش وقعا أسيرين، حيث قال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما».(٣)

نتائج الدراسة

١ - إن هذه النماذج الأربعة في التعايش والتي استخلصناها من الهدي النبوي في إقامة الجماعة الإسلامية ومن بعدها الدولة الإسلامية يمكننا أن نقيس عليها ونستولد منها نماذج متنوعة قد تكون جديدة مقامة على نفس النهج والسبيل النبوي، وقد تكون مركبة من نموذجين أو أكثر من النماذج الأربعة، وغير ذلك حسب الواقع المعيش المتغير.

---

(١) شعب الإيمان ١٠/ ١٢٨.

(٢) الروض الأنف ٣/ ٩٦.

(٣) الروض الأنف ٣/ ٩٦.

فقد تحتاج الدولة الإسلامية المعاصرة إلى نموج مركب من نموذجين أو أكثر، خاصة بعد أن صارت السيطرة على الدولة مقسمة على أكثر من جهة وأكثر من فاعل، ولكل فاعل منها إرادة وتوجه قد يتفق أو يختلف مع الآخرين.

فمن الجهات صاحبة المسئولية والسيطرة في الدولة الجامعات العلمية والهيئات الإعلامية بكل ما تمتلك من تسيير لحركة الفكر والثقافة في المجتمع، ومن هذه الجهات ما يمكن تسميته بحكومات الظل كجهات الأمن والمخابرات، ومنها الجهات صاحبة الفاعلية في اتخاذ القرار كالرئاسة والجيش والقضاء، وقد لا تتفق كل هذه القوى على توجه واحد، بل يكون لجهة أو أكثر توجه يخالف توجه جهات أخرى مما يلزم معه أن يتعامل المسلم بنماذج مركبة أو نماذج بينية أو نماذج متتالية من هذه النماذج الأربعة.

والذي يوجهه في كل ذلك هو تحقيق المقاصد الشرعية، والعمل على تحسين صورة الإسلام والمسلمين بما يدفع ويقدم شأن الدعوة إلى دين الله، والالتزام بشرعية البلاد، وعدم الصدام مع المجتمع المعيش فيه، ويوجهه أيضا إيثار المصلحة العامة للمسلمين على مصالحه الشخصية مع أمنه وأمن أسرته وأهله وعشيرته واستقرارهم، فالمسلم لا يختار بالتشهي وإنما يختار بتلك المعايير الواضحة المركبة مما ذكرناه.

٢ - وقد ظهرت علاقات بينية عديدة بين هذه النماذج الأربعة يمكن الاستفادة منها أيضا في مسألة الاستنباط والتجديد فيها وحسن الاستفادة من هذه النماذج في واقعنا المعاصر، ومن أمثلة هذه العلاقات البينية بقاء بعض المسلمين بالحبشة وتوطين أنفسهم على المعيشة هناك، واتصالهم بالنبي ﷺ والمسلمين بالمدينة بعد إقامة الدولة الإسلامية بها، وعدم هجرتهم إلى المدينة حتى بعد استقرار النبي ﷺ بها، وعدم توجيه النبي اللوم إليهم أو العتاب كما وجهه إلى من لم يهاجر من المسلمين من المجتمع المكي المشرك المحارب إلى جماعة المسلمين ودولتهم في المدينة.

وتظهر أيضا هذه العلاقات البينية في الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ إلى الآفاق، والتي لم يطلب فيها من أحد أن يهجر بلده أو موطنه فإنه كما قال: " لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ".

وتظهر كذلك هذه العلاقات البينية في التعايش السلمي مع الآخر في كل الرسائل الدعوية التي أرسلها النبي ﷺ إلى البلدان والملوك، والرسائل الدعوية هي الرسائل التي بعثها النبي ﷺ في حالة السلم، وهي الحالة التي لم يتعرض مَن أُرسلت له الدعوة أو الرسالة بالاعتداء أو العدوان على المسلمين سواء في المدينة أو غيرها.

فقد أقر رسول الله ﷺ الآخرين المتوجه إليهم الدعوة في بلدانهم، ولم يتدخل في سير حياتهم، فقط طلب منهم أن يسلموا للعقيدة الجديدة، مما ينشئ في الذهن صورة تشبه في كثير من جوانبها ـ وليس بتمامها ـ النظم الفيدرالية الحديثة، كما سيأتي في دراسة الرسائل تفصيلاً.

٣ – إن النماذج الأربعة في التعايش والتي تركها لنا الهدي النبوي يمكن الاستفادة منها على مستوى الدولة الإسلامية، ويمكن الاستفادة منها على مستوى الجماعة الإسلامية سواء كانت أقلية أو أغلبية، ويمكن للفرد المسلم أن يستفيد بها في حياته ومعيشته كلٌّ حسب حاله ومكانه وزمانه، فسلوك المسلم في حركة حياته وتعايشه مع المجتمع مسألة تتعلق به وما يعانيه أو يحيط به من ظروف، ولكن العبرة في الشريعة هو التزام الفرد أو الدولة بمنظومة القيم الأخلاقية وبالهدي النبوي وسنته ومنهجه المنبثق من عقيدة التوحيد ومن الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة.

فالعقيدة الإسلامية هي الإطار الكلي الحاكم لحياة المسلم وسلوكه، ولذلك فمن الطبيعي أن نجد في البلد الواحد عدة نماذج للتعايش بل وفي حياة الشخص الواحد تتغير وتتنوع، وليس في هذا تلون أو نفاق أو تغير في المواقف والمبادئ، فللمسلم أن يتغير نمط تعايشه مع الآخر ولكن بما لا يجيز له الخيانة والغدر، وبما لا يجيز له الكذب والزور، وبما لا يجيز له الظلم والاعتداء؛ لأن أسلوب التعايش ونمطه مرتبط ومبني دائما أبدا على أسس ثابتة ومقاصد راسخة نص عليها القرآن وطبقها النبي ﷺ في هديه وسنته، ولقد فهمها المسلمون وطبقوها من عصر النبي ﷺ وإلى يومنا هذا، إلا أنه قد مرت عصور طويلة لم يتغير فيها حال العالم بالحدة والعمق الذي تغير فيه حال عالمنا المعاصر، ولقد أرجعنا هذا في كثير من كتاباتنا إلى ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة التي جعلت الإنسان لا يعيش يومه كأمسه ولا ينتظر غدا كيومه.

والتغيير البطيء عبر العصور دفع الفقه الإسلامي نحو الركود، ودفعه أيضا إلى الانطباع بالحال التي سادت في التاريخ الإسلامي وهي الحال التي كان المسلمون فيها في شد وجذب من الآخرين وكانوا يتناوشون من كل حدب وصوب، ففي الشرق الصليبيون وهجماتهم على الدولة الإسلامية في عقر دارها، وفي الغرب الأندلس والمغرب وما رموا به من عدوان وطغيان، ثم ارتبطت السلسلة وامتدت حتى الاستعمار الحديث على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.

أما وقد أصاب الناس في عالمنا المعاصر تغيرات جذرية في حياتهم ووصل تطورهم التكنولوجي حتى إنه يمكن لقنبلة واحدة يطلقها شخص أهوج أن تتلاشى الكرة الأرضية في الفضاء فقد وجب علينا ووجب على الآخرين احترام قيم السلام ونشرها، وتجاوز كل ما مضى من صراعات وحروب، وعدم إحيائها أو التذكير بها، فلتكن صفحة سلام جديد بين الشعوب والحكومات، سلام ينظر إلى المستقبل بعين التعاون والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية، نظرة يحترم فيها كل إنسان أخيه، ويتركه وما يعتقده ويدينه، شريطة أن يدعو للسلام ويتمسك به ويعمل من أجله.

٤ – ولا يتعارض شأن الاستفادة من هذه النماذج الأربعة وتطبيقها والقياس عليها والعمل بأحكامها ـ إن اتفق أو تشابه الواقع المعاصر مع الواقع الذي شرعت فيه أو شرعت من أجل مثله ـ مع ثبات الأحكام الشرعية في صورتها الأخيرة التي تركنا عليها رسول الله ﷺ من الفروض والواجبات والمحرمات باعتبارها هوية الإسلام وحقيقته التي لا تتجزأ.

فالنماذج الأربعة في التعايش وما يتولد منها من نماذج جديدة أو مركبة كلها مُفَعَّلة وقابلة للتطبيق وليس نموذج منها ينسخ آخر، بل لكل نموذج منها حاله ومحله الذي يطبق فيه وتكون له الأولوية في تحقيق مصالح المسلمين، ومقاصد الشرع الشريف.

وزوال هذا التعارض احتاج إلى نظرية جديدة في فهم الدليل الشرعي بحيث لا تنكر النسخ بالكلية ولكنها تمكنا من الاستفادة من كل ما جاء به القرآن من آيات وكل ما جاء في تطبيق رسول الله ﷺ المعصوم من مناهج ونماذج.

وهذه النظرية هي نظرية النساء التي جاءت إشارتها عند بعض علماء المسلمين كالزركشي والسيوطي، وتلقاها مَن بعدهم من العلماء بالقبول.

ونظرية النساء تُرَشِّد مفهومَ النسخ ولا تلغيه، ومبناها أن المصالح الإنسانية تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، وليس مجافيا للعقل أبدا أن يعلم الله تعالى صلاحية الفعل في زمن وعدم صلاحيته في زمن آخر، فيأمر به في الزمن الأول لصلاحيته، وينهى عنه في الزمن الآخر لعدم صلاحيته، وعِلْمُ الله تعالى بالأمرين أزلي قديم. والمشرع الحكيم قد تتدرج بالمكلفين، رحمة بهم حتى لا يفاجئهم بما يثقل عليهم.

وأما هذه النماذج الأربعة في هدي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر لا يدخلها النسخ، بمعنى رفع أحكامها كلية، والنسخ لا يقع في الأحكام التي وردت في كتاب الله تعالى؛ لأنه كتاب الله المعجز الذي أودع فيه سبحانه قانون صلاح الإنسان في كل زمان ومكان وهو الكلمة الأخيرة من رب العالمين إلى الناس ونحن في احتياج إلى كل ما أمر به ونهى وأرشد ونبه ، فليس هناك نسخ لأحكامه لا بكتاب ولا بسنة.

فما بالنا وأن الأسس والمقاصد التي تظهر لنا جلية في نماذج التعايش الأربعة قد نص عليها القرآن في كثير من آياته، وجاء تطبيق النبي ﷺفي سيرته وسنته وفي قوله وفعله دالا على فاعليتها وعلى أهمية العمل بها؛ حتى يتيسر للمسلم حاله، وتمضي مسيرته في سلام وتعايش وأمن وسعادة، وبإهمالها أو تجاهلها أو المضي على غير هديها فإن المسلم يعيش في اضطراب وشتات، لا يستطيع أن يواجه حاله ومستجدات حياته، فيكون إنسانًا فاقدًا للتكيف مع الآخر، وسيضيق عليه الكون، وستصارعه فطرته ومبادئه؛ لأنه لا يستطيع حينئذ أن يوائم بين تعاليم الدين والعقيدة وبين سلوكه وسلوك من حوله.

ويناسب ما ذهبنا إليه هنا القول بالنَّساء - بفتح النون- وهو أن يرد حكم مقيد بقيد أو مشروط بشرط فنعمل به عند حصول قيده أو شرطه، ولا نعمل به عند فقد واحد منهما، وبذلك نكون قد أنزلنا القرآن الكريم منزلته ، فلا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا يزال مصدرا للأحكام في هدي السنة المشرفة وبيانها، في كل زمان ومكان ، وعلى كل حال.

وحينئذ يمكننا أن نقول: إن كل الآيات التي ذكر فيها أنها منسوخة إنما تثبت حكمًا شرعيًّا على المكلفين في حالة معينة، وأن الآيات التي قيل فيها إنها ناسخة تثبت حكما شرعيا آخر عند تغير الحالة الأولى إلى حالة أخرى. يعني إذا رجعت الحالة الأولى رجع معها الحكم المنزل بإزائها؛ فتنزل الأحكام المتعارضة على أحوال مختلفة.

ومن علماء المسلمين أبو مسلم الأصفهاني والذي أشيع أنه ينكر النسخ بالكلية، وليس صحيحا، فهو لا ينكر النسخ كلية، لا ينكر نسخ شريعة بشريعة أو نسخ القرآن للسنة، ولكنه ينكر نسخ شيء من القرآن، واستدل بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢]

على أن آيات الكتاب الكريم كلها محكمة يجب العمل بكل ما فيها.

ونحن نرى صواب هذا الرأي ونراه يتوافق مع ما أشار إليه كل من الزركشي والسيوطي من تفرقة بين النسخ والنساء، ونرى كذلك أن يستثني من النسخ التطبيق المحكم من النبي محمد ﷺ المعصوم والذي جاء في شكل نماذج أو مناهج أو أساليب في الفهم والتعايش.

وأما إشارة الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان جاءت كما يلي:

القسم الثالث من النسخ: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله، ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك.

وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسيء، كما قال تعالى: أَوْ نُنْسِأْهَا. فالمنسأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.

ونحن نرى تعميم هذه الإشارة في شكل نظرية للنساء، نفهم في ظلها النصوص التي ادعي فيها النسخ.

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك بل هي من المُنْسَأ، بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله

في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم. ثم ينتقل الحكم بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، وإنما النسخ الإزالة التي لا تجيز الرجوع إلى الحكم الأول.

وإلى هذا أشار أيضا الشافعي من قبل في الرسالة حين تحدث عن النهي عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الدافة، فإن الإذن بعد ذلك فيه لم يكن نسخا، بل هو من باب زوال الحكم لزوال علته، وهذا يجعل حكم من أصابته الدافة وهي العلة أن يُنْهى عن ادخار لحوم الأضاحي.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]

فقد كان هذا الحكم في الآية في ابتداء أمر الإسلام، والمسلمون ضعفاء، فلما قوي حالهم وجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقاتلة عليه عند العدوان عليهم، ولو فُرِضَ وقوع الضعف ثانية حتى يصير إلى الحال التي كان عليها فإن الحكم يعود ثانية "عليكم أنفسكم".

وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: « إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ". رواه مسلم

والحكم ذكره النبي ﷺ حينئذ في قوله: «بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِى رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ".[1] رواه الترمذي

ومن أهم القضايا التي كان للقول بالنسخ فيها دور كبير في تشكيل وجهة الأحكام الجهاد، فإن الفقهاء حين اجتهدوا في قضايا الجهاد ومسائله كان للنسخ دوره في صياغة ما صاغوه من أحكام وفتاوى، فمنهم من قال بنسخ بعض النصوص فكان حكمه مع غيرها ومنهم من قال بعدم نسخها فكان حكمه معها.

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٢-٤٣، الإتقان ٢/ ٢١.

ولا نريد الخوض في تفاصيل باب الجهاد ورصد ما كان للنسخ من دور فيها، ولكن نريد أن نؤكد على أمر في غاية الأهمية وهو أن غاية الجهاد في الإسلام ومقصده خارج عن دائرة الاجتهاد وهو أمر محكم بناء على ما دل عليه من محكم النصوص وقواطعها والقواعد الكلية المستنبطة من مجمل الشريعة، وهو أن الجهاد إنما شرع من أجل الدفاع عن النفس وصد العدوان ورفع الطغيان، وليس أبدا الجهاد كان أو يكون أداة للاعتداء على الآخرين أو وسيلة لفرض دين أو عقيدة عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٥]

فهذا هو دستور الجهاد في القرآن الكريم، وليس القتال إلا نوعا أو سبيلا من سبل الجهاد المتعددة الأشكال والمتنوعة والواسعة، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وجعل رسول الله ﷺ القتال هو الجهاد الأصغر بينما جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، فعن جابر ﷺ قال: قدم على رسول الله ﷺقوم غزاة، فقال ﷺ: « قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ". قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: " مجاهدة العبد هواه ».

وجعل رسول الله من الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " الجهاد أربع: أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسقين."(١)

وجعل رسول الله ﷺ الحج جهاد المرأة والشيخ، عن عائشة أم المؤمنين قالت: يا رسول الله ألا نخرج نجاهد معكم؟ قال: "لا، جهادكن الحج المبرور، هو لكن جهاد ".(٢)

فلا يتورك أحد على المسلمين افتراء أنهم في حال ضعفهم لا يعتدون وإذا اشتد بأسهم يعتدون؛ فإن هذا مخالف لحقيقة الإسلام وحال المسلمين عبر العصور، حيث إن جهادهم كان صدا للعدوان أو احترازا من هذا العدوان أو استعادة لحقوق مسلوبة.

أكد على ذلك الكتاب والسنة وسيرة المصطفى ﷺ، فلقد تعرض وهو في المدينة للعدوان في موقعة بدر ثم أحد ثم الخندق إلى آخر ما هنالك، حتى قال ﷺ كما رواه ابْنُ عُمَرَ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ».(٣)

والناس في هذا الحديث كما ورد عند شراح الحديث هم مشركو العرب الذين لم يتركوه لدعوته بل حاربوه بكل وسيلة وبكل أذية، فكان جهاده كله في كل مراحله وأطواره لصد العدوان ورفع الطغيان، فكان هذا الحديث من قبيل العام الذي أريد به الخاص، حيث إن الناس ليست الكافة بل أهل العدوان والطغيان والذين شأنهم شأن مشركي العرب المعتدين الطاغين.

٥ - إن دراسة النماذج الأربعة النبوية في التعايش بين الإنسان المسلم وبين أخيه الإنسان سواء المسلم وغيره وتأملها والاستفادة منها في تسيير وتسهيل حياة المسلم في عالمه المعاصر ليعد نموذجا ومنهاجا لكيفية تجديد الفكر الديني وتفعيل الأحكام الشرعية في حياة المسلمين ويعد كذلك بثا لروح جديدة في تراثنا الفقهي الموروث تبعثه من جديد وتجعله أكثر فاعلية وملائمة لحياة المسلم، تمكنه من تعمير الكون وبناء

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٠.

(٢) مسند أحمد ج٦/ ص٧١، حديث رقم (٢٤٤٦٧).

(٣) البخاري (كتاب الإيمان ـ باب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ).

الحضارة، وتمكنه من حسن التوجه والعبادة للخالق سبحانه وتعالى، وتيسر عليه طريق السعادة الدنيوية والأخروية.

وتأتي أهمية هذه الدراسة والتأمل والتجديد فيها في أنها استجابة لدعوة النبي ﷺ وأمره حيث قال فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا ».(١)

فإن إخبار النبي ﷺ بأن الله يبعث من علماء المسلمين كل مائة عام من يجدد لها أمر الدين لهو دعوة وأمر بالتجديد، يستجيب لها من يسر الله له ذلك ووهبه الملكة والعلم اللازمين للتجديد.

وقد استجاب من المجددين حجة الإسلام الغزالي والذي وضع كتابه الأشهر بعنوان يشير إلى مسألة التجديد والإحياء للفكر الديني فسماه " إحياء علوم الدين " فجاء كما أراد كتابا حافلا بالإحياء والتجديد.

وهكذا سار المجددون في تاريخنا العلمي والفقهي يتركون لنا الإشارات واللمحات التي تفتق عنها ذهنهم وأدركوا أهميتها ودورها في إضاءة النور العلمي للأجيال التالية عليهم وعرفوا أهمية أن تقوم هذه الأجيال بدورها في التجديد والذي يبدأ من تطوير وفهم ما تركوه لنا من إشارات وتلميحات ونكت.

فلم يكتف سلفنا من الفقهاء المجددين بالقيام بواجب وقتهم الذي استلزم منهم التجديد والاجتهاد في حل مشاكلهم وقضاياهم التي عاصروها، بل أحسوا بواجبهم بأن يلفتوا انتباهنا ويضعوا بعض القواعد والمناهج بل والمسائل التي ترشد من يأتي بعدهم في طريقه الذي سلكوه من قبله وهو طريق التجديد.

فأخطأ كل الخطأ من يحسب التجديد بادئا بهدم السابقين ونبذ التراث والتعالي عليه، فليس ذلك إلا انسلاخا من الحقائق والأصول وليس إلا بترا للإنسان من تراثه المتراكم وخبرات من سبقه فيكون بدأ من جديد وليس سعيا إلى التجديد.

---

(١) رواه أبو داود (كتاب الملاحم ـ باب مَا يُذْكَرُ فِى قَرْنِ الْمِائَةِ).

فلو تصورنا إنسانًا سار وراء هذه المنهجية في نبذ كل ما هو قديم وموروث من خبرات وأديان وعلم وفقه فإن هذا الإنسان حتما سيعود إلى البدائية، ربما لا يعود إليها بمظهره وسمته ولكنه سيعود إليها بعقله وخلقه وسلوكه، يعود إنسانا نازعا إلى الحرب والتدمير يعود إنسانا يؤثر الشر على الخير، ولا يرى إلا حاجته ومتطلباته المادية، فهو يقتل من أجل الطعام والشراب والشهوة، وهذا الإنسان إن اتبع هواه إلى غير غاية فإنه حتما سيهدم كل حضارة وكل عمران.

وبناء عليه وقياما بدوري في تجديد الفقه الإسلامي كواجب محتم وفرض أوجبت علينا حياتنا المعاصرة القيام به فإني قد سجلت على مدار قراءتي لتراثنا الفقهي بعض الإشارات واللمحات التي إن أحسنا تطويرها والاستفادة منها والقياس عليها كنظريات وكليات لأمكنا أن نحل كثيرا من مشاكلنا وقضايانا التي يعجز الفقه في حالته القديمة والتي ما زالت قديمة أن يواجهها ويحلها.

فهذه النظريات مبثوثة في بطون كتب الفقه، تحدث عنها علماؤنا كحلول في بعض المسائل الفقهية، ربما مروا عليها سريعا واكتفوا بأن تكون مخرجا وسبيلا لوصولهم لحكم في مسألة فرعية، وهذا أمر طبيعي، فإن هذه النظرية لم يكن لها دور أو مجال أوسع مما استفادوا بها فيه، ولكنها الآن مهمة جدا وضرورية في مسألة الاجتهاد في كثير من مسائلنا المستجدة التي عرضت وربما تكون هذه النظرية مخرجا أيضا في حلها.

وهذا النظريات مثل:

١ – اللحظة اللطيفة:

نظرية اللحظة اللطيفة هي تلكم النظرية التي تُمَكِّنُنَا من تصحيح بعض العقود المستحدثة، والتي إن أخضعناها إلى مطلق القواعد الفقهية العامة لحكمنا عليها بالفساد والبطلان، ومما لا يخفى على أحد أن التطور السريع في العالم المعاصر يستلزم استحداث وإنشاء عقود جديدة بشكل سريع ومعقد، بحيث تستطيع هذه العقود أن تقنن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمع وغيره من المجتمعات التي تحكمها ثقافات مختلفة وتقاليد متعددة ومفاهيم شتى.

تحدث فقهاؤنا عن اللحظة اللطيفة في صورة إشارة أو مخرج لعقدة فقهية ومسألة متشابكة من مسائل المجتمع آنذاك، فمثلا ذكرت نظرية اللحظة اللطيفة في باب العتق، وباب العتق في فقهنا الإسلامي وعلى الرغم من إلغاء الرق ومنعه دوليا إلا أننا نحتاج إلى دراسته وتطويره واستخراج بعض المفاهيم والمناهج العامة منه، والتي يمكن تسخيرها في غيره من أبواب الفقه، في تحديد الأحكام الشرعية المناسبة والأليق بالمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، تلكم الشريعة التي طالما تشوقت للحرية ودعت إليها، ووضعت من المناهج والإجراءات التي من شأنها على المدى أن تمحو الرق محوا حقيقيا من حياة الناس.

والمسألة كالآتي: ذهب رجل إلى السوق فاشترى عبدا ودفع ثمنه وأخذه، ولكنه فوجئ بعد ذلك أن هذا العبد أحد فروعه أو أصوله أي ابن من أبنائه أو أب من آبائه، وهذا يعد مانعا شرعيا يمنع من تملكه لهذا العبد، ويقضي ببطلان العقد وعدم صحة البيع، وعليه فإن اتباع القواعد العامة تلزمه أن يرد العبد ويسترد ماله من البائع، والبائع يأخذ العبد ويعرضه للبيع مرة أخرى، وفي هذه الحالة وعند اتباع القاعدة العامة فإن هذا العبد سيبقى في الرق ولا يخرج منه، فهل من حل أو مخرج يحقق لهذا العبد حريته ولا يضيع على هذا الرجل ماله وعلى البائع سلعته؟

فابتكر الفقهاء مفهوم اللحظة اللطيفة، قالوا: سنتصور لحظةً لطيفة نُدْخِلُ فيها هذا الإنسان في ملك المشتري لحظة لطيفة كالشعاع الذي ينزل علىٰ سطح المرآة ثم ينعكس فورا مرة أخرىٰ، فملامسة الشعاع لسطح المرآة تمت في لحظةٍ لطيفة، ولم تمتص المرآة الضوء وتكتمه عن الانعكاس كشأن كثيرٍ من الأجسام، ولكن عكسته حين نزل عليها في لحظةٍ لطيفة، حتى يظهر المانع، فوجب إخراجه من الملك؛ لأنه أصبح ملكا يخالف الشرع، وحينئذ يكون خروجه من ملكي تحريرا له وليس عودة به للرق مرة أخرى للبائع الأول. وحينئذ تفيد اللحظة اللطيفة: تحرير العبد، تصحيح العقد.

وتكلم الفقهاء أيضا عن مفهوم اللحظة اللطيفة في باب الوقف:

فالوقف يخرج الشيء من مِلْك الإنسان إلىٰ ملك الله سبحانه وتعالىٰ، والوقف هو حبس عين معينة أخرجها صاحبها من ملكه ووضعها في مِلْك الله، أي أخرجها من ملك الفرد إلى ملك الجماعة.

والوقف يقتضي جعل إيراد ما وقفته من عين وثمرته في سبيل الخير حيث كان رعاية طلبة العلم علاج المرضى الإنفاق على الأرامل واليتامى، البحث العلمي. وهذه العين الموقوفة تخرج من ملك صاحبها وهو حي، ثم بعد وفاته هي خارجة من تركته وغير مورثة.

المسألة: في بعض الأحيان يرغب الإنسان أن يوقف عينا، ثم هو يخشى أن يمتد به العمر وتشتد حاجته إلى تلك العين الموقوفة، ولا يريد جعل هذه العين وصية؛ لأن الوصية لها شروطها ومنها أنها لا تنفذ فيما يزيد على ثلث التركة إلا بعد إذن الورثة، وهو غير واثق أن قيمة هذه العين وقت وفاته ستكون أقل من ثلث تركته.

فلجأ الفقهاء إلى فكرة اللحظة اللطيفة حتى يتمكنوا من تحقيق مختلف المقاصد، فقالوا: يوقف المسلم تلك العين العَيْنَ قبل وفاته بلحظةٍ لطيفة، فيقول: أوقفت هذه العين بدءًا من لحظةٍ لطيفة قبل وفاتي. وعليه ينفذ هذا الوقف ويصير وقفا، وعندما يموت الرجل لا تُعَدُّ تلك العين من تركته، فنُحَقِّقُ له مصلحتَهُ، ونحقق له رغبته في فعل الخير.

وهذه النظرية يمكن أن نستفيد بها في المعاملات المالية، وفي تحديد أحكام الشخصية الاعتبارية، وفي مجال الضمان، وفي باب الرهن، وغير ذلك من أبواب كثيرة يمكن لهذه النظرية أن تُفَعَّل فيها، وأن نستفيد منها.

٢ – ذهاب المحل:

ذكرها الأصوليون تحت مسمى "أثر ذهاب المحل"، وسمَّاها الإمام الرازي"النسخ بالعقل"، واعترض على تلك التسمية الإمام الشوكاني؛ لأن النسخ لا يكون أبدًا بالعقل، وأن الذي يَحْدُثُ إنما هو: ذَهاب الحكم بذهاب المحل.

ولا نوافق الإمام الرازي في تسميته لهذه النظرية بالنسخ العقلي، لأن النسخ هو إزالة الحكم، والحكم هنا لم يَزُل؛ إنما تعذر تطبيقه، وهناك فرق بين إلغاء الحكم وبين عدم تطبيقه، وهناك فرق بين تعطيل الشريعة وبين إيقاف الشريعة؛ لأنها – نفس الشريعة – شرعت هذا الإيقاف، فالإيقاف نوعٌ من أنواع تطبيق الشريعة، لكن التعطيل نوع من أنواع إلغاء الشريعة؛ فحالة إلغاء الشريعة هي حالة خروج عن حكم الله، وحكمها نصه قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]

وأما حالة إيقاف الشريعة؛ لعدم توفر الشروط، وهذه الحالة طبقها سيدنا عمر بن الخطاب الخليفة الثاني، والذي أمرنا رسول الله ﷺ أن نتبع سنته حيث قال: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ"[1]. والناجذة هو ضرس العقل.

فإنه في عام الرمادة لما اشتد القحط والجوع بين الناس جميعا أوقف سيدنا عمر بن الخطاب تطبيق حد السرقة بين الناس، وذلك لأن جوع الناس وحاجتهم إلى الطعام تعتبر شبهة يدرء بها الحد كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: " ادْرَءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ".[2]

مثال على ذهاب المحل:

لقد أمر الشرع بالوضوء والوضوء من فروضه غسل اليدين إلى المرفقين، فاليدين هي محل الغسل، فإن قطعت اليد في حادثة أو حد أو غير ذلك، فإن المحل قد ذهب، فما الحكم إذن؟

إن مقطوع اليد، ليس عليه شيء، وليس في وضوئه غسل اليدين؛ لذهاب المحل.

ولكن لو تصورنا افتراضًا أن اليدين رجعا مرة ثانية، فحينها يجب عليه غسلها؛ لأن فرضيه غسل اليدين في الوضوء لم تسقط عنه بل عطلت أو توقفت لذهاب المحل، فإن فرض أن المحل عاد فإن الحكم يجب مرة أخرى.

مثال آخر:

إن من الكفارات التي ورد ذكرها في الشرع عتق الرقبة، فهو كفارة في اليمين وفي الظهار وفي القتل الخطأ وفي الإفطار عمدا في رمضان، ولكن الرق قد ألغي في عصرنا منذ أواسط

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦١٠)، برقم: (٤٦٠٧)، وابن ماجه: (١/ ١٥)، برقم: (٤٢)، كلاهما من حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه.

(٢) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال»: (٥/ ٢٠٥)، برقم: (١٢٩٥٧)، وعزاه إلى أبي مسلم الكجي عن عمر بن عبد العزيز مرسلًا.

القرن التاسع عشر، فهذا نموذج لذهاب المحل، ولكن ذهاب المحل في هذه الحالة ذهاب إلى بديل نص عليه الشرع، بينما كان في الحالة السابقة ذهاب للمحل إلى غير بديل.

بمعنى أن النص قد ذكر بديلاً عن الكفارة بعتق الرقبة يقوم مقامه ويحل محله وهو إما إطعام المساكين أو كسوتهم أو الصيام.

قال تعالى عن كفارة اليمين: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة المائدة: آية ٨٩]

وفي كفارة القتل الخطأ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة النساء: آية ٩٢]

وفي كفارة الظهار قال تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة المجادلة: آية ٤]

٣ – تفريق الأحكام:

إن استيعاب مفهوم تفريق الأحكام الذي أرساه فقهاؤنا القدامى لمن شأنه أن يساعد في معرفة كثير من أدوات التفكير الفقهي لديهم، ومعرفة طريقتهم العملية في فهم النصوص الشرعية وإسقاط أحكامها على واقعهم المعيش، ومفهوم تفريق الأحكام يساعد كثيرا القانونيين في صياغتهم القانونية بما يحقق العدالة ويقضي على الثغرات التي تنشأ من تناقض

القوانين وتعارضها، ومفهوم تفريق الأحكام أيضا يعين القاضي على القضاء بحكمه الذي يراه دون الوقوع في حرج أو عنت أو حيرة.

ولنشرح المثال ومنه نخلص إلى المفهوم:

لو أن شابا عاش في قرية نائية في كنف أبيه وتحت رعايته، ثم تزوج الشاب من امرأة أحبها، ورغم حسنها وحسن خلقها إلا أن أباه أمره بتطليقها، دون سبب، فاستجاب الشاب لأمر أبيه برا به فطلقها، ثم تزوج بأخرى فتكرر الأمر ثانية، فتزوج بثالثة فتكرر الأمر ثالثًا.

فيأس الشاب ورحل عن القرية ونزل إلى الحضر، فوجد فتاة من أسرة طيبة تعيش مع أمها، سأل عن أبيها فأخبرته الأم أنها تزوجت برجل جاء من مكان بعيد لا تعرفه، وكان يعرف باسم شهرة معين ـ ولم يكن حينها عهد الناس أمر التوثيق والكتابة لعقود الزواج ـ فأنجبت هذه الفتاة من زواج صحيح.

وعليه تزوج الشاب من تلك الفتاة وأنجب منها أولادا، وما زال في هدوء واستقرار حتى توفت الأم وقدم الأب من الريف لزيارة ابنه فلما تحدث إلى زوجة ابنه وسألها عن اسمها واسم أمها وعن مكان سكنهم القديم زعم أنها ابنته.

فاعتقد الشاب وبناء على تجربته المريرة مع سعي أبيه لطلاقه ثلاث مرات سبقت أن والده اختلق هذه القصة ليطلقه مرة رابعة فرفض الإقرار بما يزعمه أبوه من نسب وعليه أبقى على حالة الزوجية.

فأعمل الفقهاء مفهوم تفريق الأحكام فقضوا بأن الرجل يجوز له أن ينسب البنت إليه؛ لأنها في حكم مجهول النسب، ونحن نثق تماما من أنها ولدت من نكاح صحيح، وقد ماتت أمها ومات الشهود الذين شهدوا على عقد الزواج، فتعثر وجود بينة تدل على صحة دعوى النسب بين الفتاة ـ زوجة الشاب ـ وبين الأب.

ولكننا مع تجويز هذا النسب لن نرتب عليه كل آثاره، بمعنى أننا نرتب عليه أن البنت سترث من الأب، وهو يرثها إن ماتت قبله، وفي نفس الوقت يجوز للشاب أن ينكرَ هذا النسب ويستمر في الزوجية مع زوجته، فلا يفسخ العقد ويثبت.

وبذلك نكون قد فرَّقنا الأحكام، فنعطيها الميراث؛ لأن الرجل ادعى نسبها، وفي نفسِ الوقتِ نُقِرُّ الزوجية؛ لأن الزوج أنكر ذلك النسب، وهذا تطبيق لنظرية تفريق الأحكام.

وهناك أشياء مثل ما جاء في المثل السابق نُضطر فيها إلى تفريق الأحكام؛ لأننا نشعر أن العمل بأحد الطريقين ترجيحٌ بلا مُرَجِّح، ويؤدي إلى ظلم أحد الطرفين؛ ومن أجل ذلك يبقى الحال على ما هو عليه في كلٍّ من الطرفين، ونأخذ بالطريقين معًا كما في المثال السابق.

وتفريق الأحكام موجود في كثير من أبواب الفقه، بدءا من الطهارة ثم الصلاة والزكاة ونهاية بالمعاملات المالية والعلاقات الدولية، فالأمر واسع جدا ويحتاج لدراسة منفصلة ومستقلة تبحث عن إمكانية إيجاد تطبيقات قانونية وقضائية لهذه النظرية.

عَلاقة تفريق الأحكام بنظرية الاحتياط:

هناك عَلاقة بين نظرية تفريق الأحكام وبين نظرية الاحتياط في الفقه الإسلامي، والاحتياط قد يكون واجبًا إذا كانت الشبهة شبهة محل، وقد يكون مندوبًا إليه إذا كانت الشبهة شبهة مذهب، والاحتياط لا يوجد أصلًا في شبهة الفاعل، وهذه هي الشبهات الثلاث التي تكلم عنها الفقهاء.[1]

(١) قال الدمياطي في «إعانة الطالبين» (٣/ ٣٣٧): «واعلم أن الشبهة تنقسم ثلاثة أقسام: القسم الأول: شبهة الفاعل، وهي كمن وطئ على ظن الزوجية أو المِلكية، والقسم الثاني: شبهة المحل، وهي كمن وطئ الأَمة المشتركة، والقسم الثالث: شبهة الطريق، وهي التي يقول بها عالم يُعتد بخلافه، والأول: لا يتصف بحل ولا حرمة؛ لأن فاعله غافلٌ وهو غير مكلف،.والثاني: حرام، والثالث: إن قلد القائل بالحل لا حرمة وإلا حرم».

أولًا: شبهةٌ قائمةٌ بالفاعل:

وهو الذي نسميه في لغتنا الدارجة بـ(القضاء والقدر)، أو ما نسميه في لغتنا القانونية بـ(الحادث) أو (الحادثة)، أي: أنها وقعت بدون تدبيرٍ من الفاعل، كحادثة سيارةٍ ارتطمت بشيءٍ أمامها، أو طائرة وقعت، أو سفينةٍ غَرِقَت، فقد وقع ذلك من الفاعل عن غير قصد؛ بل بشبهةٍ قامت بذهنه. ومن أمثلتها: أن يشرب الإنسان شيئًا يظنه ماءً، ثم يظهر أنه خمرٌ؛ فلا إثمَ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولحديث: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[(١)].

فهذا الشارب لم يتجانف الإثم، ولكن هي شبهة قامت عنده؛ فظن أنه ماء.

والعكس أيضًا صحيح، فلو أن رجلًا تجرَّأ فأمسك بكوب ماء فشربه وهو يظنه خمرًا؛ فإنه يأثم قطعًا؛ لنيته المعقودة على شُرْبِ الحرام؛ ولأنه تجانف الإثم، وكون الكوب به ماء يُسقِط عنه الحد على أحد القولين عند الفقهاء ولكن عليه الإثم الذي تعمده.

إذًا هناك فرق بين استحقاق العاصي للإثمِ وبين استحقاقه لإقامة الحد، فمن تَجَرَّأَ على محارم الله تعالى؛ استحق الإثم، أمَّا الحد فله شروطٌ وضوابطُ لا بد منها؛ ولذلك اختلف العلماء في وجوب الحد عليه في هذه الحالات وأمثالها على قولين.

ومن أمثلته أيضًا: لو أن رجلًا جامع امرأةً على أنها أجنبيةٌ - اقتحامًا منه لمحارم الله تعالى، وتَعَدِّيًا منه لحدود الشرع الشريف- ثم بَانَ بعد ذلك أن هذه التي جامعها إنما هي زوجته، فهذه شبهة يأثم صاحبها بلا خلاف، أمَّا الحد ففيه قولان، كما في فوائد رحلة ابن الصلاح نص على ذلك الأَسْنَوِي في «التمهيد».

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: (١/ ٣)، برقم: (١)، ومسلم: (٣/ ١٥١٥)، برقم: (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ثانيًا: شبهة المحل:

ومثالها: اللحم الذي يشتريه المسلمُ ليأكُلَهَ، وهو لا يعرف هل ذُبحَ ذبحًا شرعيًّا أم أنها مخنوقة أو متردية أو... إلخ. فهذه شبهة محل، والاحتياط فيها واجب.

ثالثًا: شبهة المذهب:

ومثالها: مسألة نقض الوضوء بلمس المرأة؛ الشافعية يقولون: إن لمس المرأة - حتى لو كانت زوجة - ينقض الوضوء، والحنفية يقولون: لا يَنقض الوضوء حتى لو كانت أجنبية. إذًا فهذه الشبهة يحتاط الإنسان فيها احتياطًا ليس واجبًا؛ بل مندوبًا.

كيفية التعامل مع الشبهات بأقسامها، وكيف يكون الاحتياط ومواضعه، وكيفية التعامل مع نظرية الاختيار، ومع نظرية تفريق الأحكام.

عَلاقة "تفريق الأحكام" بقضية "تغيير المسلك"

نظرية "تغيير المسلك" لها ارتباط بـ(تفريق الأحكام)، ولكن بطريقةٍ مغايرةٍ للعَلاقة بنظرية الاحتياط، فمثلًا في شبهة المذهب: هل يجوز لرجل أن يتبنَّى رأيًا في مذهبٍ ما، ثم يُغيِّر مسلكه فيتبنى رأيًا آخر في مذهبٍ آخر، ويرتب على ذلك أحكامًا مختلفة؟

وصورة ذلك: أن رجلًا تزوج على مذهب أبي حنيفة بلا وليٍّ، ومعلوم أن هذا الزواج باطلٌ عند الشافعية، ثم إن الرجل بعد ذلك طلقها ثلاث طَلَقات، ثم ذهب إلى أحد العلماء الشافعية، فأفتاه ببطلان هذا العقد من أول الأمر، وبأن هذا نكاح شبهة، وبأن الطلاق الذي كان منه غير صحيح؛ لأنه وقع على غير محله، ورأى الفقيه الشافعي أن يعقد الزواج من جديد بحضور الولي؛ حتى يكون العقد صحيحًا على مذهب الشافعي، وحتى يتخلص من الطلقات الثلاث.

وهذا أيضًا له عُلْقَة بالقاعدة الفقهية التي تقول: لا ينقض الاجتهادُ الاجتهادَ. وهي قاعدة فقهية واسعة، وقد رُوِيَ عن سيدنا عمر ﷺما يدل عليها، وذلك في قوله: ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي.(١)

فهل يَصِحُّ هذا الذي فعله الفقيه الشافعي؟ وما حكم تغيير المسلك؟ هل هو مناسب أم غير مناسب؟ هل فوائدُه أكثر من مساوئه؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

٤ – واجب الوقت.

احترام التراث من خلال نظرية واجب الوقت

إن مفهوم واجب الوقت هو ذلك المفهوم الذي يجمع لنا الخير كله، الخير في احترام التراث وتقديره وحسن الاستفادة منه، والخير في العمل على الواقع المعاصر والاجتهاد من أجل تقرير الأحكام اللازمة لمسايرة الإنسان في حياته ومعاشه على وفق شريعة الله وهدي رسوله محمد ﷺ.

فالتراث الإسلامي الموروث هو نَتاج العقلية الإسلامية على مر عصور وقرون لا يمكن هدره أو نبذه أو التخلي عن الاستفادة منه، فهذا مناف للعقل ومناقض للقاعدة التي تقرر أن المعرفة الإنسانية والمعارف البشرية تراكمية، وليس لأمة أن تبدأ رحلة البناء الحضاري من عند أنفسها أو من لحظتها المعيشة دون إدراك واطلاع على كل المعارف الموروثة والمتراكمة

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه»: (١/ ١٦٢)، برقم: (٦٤٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»: (١١/ ٢٥٥)، برقم: (٣١٧٤٤)، من طريق الحكم بن مسعود، قال: شهدت عمر أشرك الإخوة من الأب والأم مع الإخوة من الأم في الثلث، فقال له رجل: قد قضيت في هذه عام الأول بغير هذا، قال: وكيف قضيت؟ قال: جعلته للإخوة للأم ولم تجعل للإخوة من الأب والأم شيئا، فقال: ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي. واللفظ لابن أبي شيبة.

للإنسانية على مر العصور، خاصة التراث الخاص بأجدادها، وإن أرادت أمتنا أن تنهض على أكتاف تراث غربي غريب عنها فقط، فإنها أمة إن بنت حضارة ونجحت فإنها تنجح بدون هوية خاصة، وينسب نجاحها إلى الغير.

ومعنى القيام بواجب الوقت أن يقوم المجتهد بالعمل والاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من مظانها بما يمكنه أن يسير حياة الإنسان في وقت الاجتهاد، ولا يتكل المجتهد أو يتواكل على الاجتهاد السابق الذي وضع أو صيغ في واقع آخر وفي وقت آخر، قد يكون بل في الأغلب تعرض هذا الواقع إلى كل التغير من جميع الجهات الأربع التي تتحكم في تغير الحكم والفتوى.

فكل وقت وله واجب الاجتهاد، وكل وقت له طريقة في التعامل معه؛ لأن الزمان يتغير، والأفكار تتغير، والوقائع تتغير، والأماكن تتغير، والعلاقات البينية تتغير، والعالَم لا يقف على موقفٍ واحد، وليس ثابتًا على حال واحدة، ومن أجل هذا التغير المستمر؛ لا بد علينا أن نُغيِّر أيضًا طريقة تعاملنا معه؛ للوصول إلى نفس الأهداف التي كان يريد السلف الصالح أن يصلوا إليها.

واحترام التراث والقيام بواجب الوقت يلزمنا بأن ننظر ونمحص التراث فنأخذ منه المناهج والنظريات ونستفيد بها في التعامل مع مسائلنا، ولا نقف عند حدود اجتهادهم في المسائل التي وجدت في عصر سابق.

نأخذ هذه المناهج ونطورها ونزيد عليها ما يلزم للاجتهاد للوقت الجديد ثم نعمل على صياغتها صياغة معاصرة، تسهل الاستفادة منها والعمل بمقتضاها، لنعالج بها المسائل الحديثة؛ لأن هذا هو واجب الوقت الذي يُكَلَّف به العلماء.

ولكن يخطئ من الناس والعوام الذي يذهب إلى كتب التراث فينقل منها نقلا مباشرا دون نظر أو تمحيص لاختلاف الزمان والوقت، وهذا نوع من الجهل أو التواكل أو سوء الفهم والاعتقاد، بمعنى أنه ربما ينقل الناقل معتقدا عجزه وعجز علماء عصره عن الإتيان والاجتهاد بأحسن ما أتى به الأوائل، وأن الاجتهاد السابق هو اجتهاد مقدس لا يجوز تخطيه أو تجوزه أو تطويره أو رفضه وإقرار عدم صلاحيته للوقت المعاصر للاجتهاد الجديد، ومن أراد أن يقف عند مسائل السلف، وأن يُوقف الزمان وأن يتصور أن الدنيا غيرُ متطورة وغير متغيرة وأنها ثابتة فهو مخطئ كل الخطأ؛ لأنه حينئذ خلط بين المطلق والنسبي بين المقدس والبشري، إن الاجتهاد الفقهي جهد بشري لفهم النص الإلهي، فالأول متغيير والثاني ثابت، وجل ما يحصل من خطأ مصدره وسببه الخلط والمزج بين ذاك وذاك.

فواجب الوقت أن نجتهد مرةً أخرى كما اجتهد سلفنا، والاجتهاد يحتاج إلى معارف وملكات، فهو يحتاج إلى الإلمام باللغة العربية، وتَمَكُّن في معرفة مساحة الاتفاق ومساحة الاختلاف في الاجتهاد؛ لأن المتفق عليه لا يجوز أن نخالفه، والمختلف فيه وهو المساحة الواسعة الكبيرة، هي التي يجوز أن نُخالف فيها ونجتهد، في إطار تحقيق المقاصد الشرعية ومراعاة المآلات وتبليغ دعوة الإسلام للعالمين.

الخاتمة

يجب علينا أن ندرس سيرة رسول الله ﷺ مع سنته في نسق واحد، ونحاول أن نستخرج منها مكونات الشخصية المسلمة، سواء من الناحية العقلية أو النفسية، أو من ناحية المناهج التي يلتزمها في تقويمه للمواقف، وإنشائه للعلاقات، وفهمه للأمور، ومواجهته للعالمين، عيشا ومشاركة وتفاهما وتعاونا وعبادة لله وعمارة للأرض وتزكية للنفس، حتى يكون قد اتخذ النبي ﷺ أسوة حسنة، وحتى يحقق التكليف والتشريف في مقام الشهادة على العالمين.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]

وإن هذه الدراسة تؤدي إلى التمسك بهدي النبي ﷺ، وتَقِي من كل انحراف عن منهجه وهديه، بالاجتزاء، أو التأويل الخاطئ، أو التقصير في الفهم، أو القصور في الإدراك، أو الإفراط أو التفريط أو المغالطة في السلوك والتطبيق، أو نحو ذلك من انحرافات الفكر والسلوك.

خطبة الوداع

جاء في تاريخ الطبري ٢/ ٩٣ ذكر خطبة الوداع:

مضى رسول الله ﷺ على حجه؛ فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم؛ وخطب الناس خطبته التي بين للناس فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال:

أيها الناس، اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا؛ وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل رباً موضوع، ولكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإن ربا العباس بن عبد الطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته بنو هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس؛ إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله؛ وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية؛ ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس؛ فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن

تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله؛ فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي؛ فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلغت، واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس؛ فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت! قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهم أشهد.أ هـ

وروى الإمام أحمد في مسنده رقم (١٧١٩٣): عنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ:

قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِى فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لاَ فِقْهَ لَهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِمْ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ وَالنَّصِيحَةُ لِوَلِىِّ الأَمْرِ وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِ ».

وروى الإمام أحمد في مسنده رقم (٢٤٢١٢):

عنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ مُخَضْرَمَةٍ فَقَالَ: « أَلاَ وَإِنِّى فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَنْظُرُكُمْ وَإِنِّى مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ فَلاَ تُسَوِّدُوا وَجْهِى أَلاَ وَقَدْ رَأَيْتُمُونِى وَسَمِعْتُمْ مِنِّى وَسَتُسْأَلُونَ عَنِّى فَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ أَلاَ وَإِنِّى مُسْتَنْقِذٌ رِجَالاً أَوْ إِنَاثاً وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّى آخَرُونَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِى. فَيُقَالُ إِنَّكَ لاَ تَدْرِى مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ».

وقال النبي ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير:

اتقوا الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها. ثم قال: الناس في الإسلام سواء، الناس طف الصاع لآدم وحواء.

يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لاسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب.

ثم قال: لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم، فأقول للناس هكذا، ولكم هكذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم!.(١)

يا معشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم، وتجيء الناس بالآخرة، فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا.(٢)

ثم قال: فأوصيكم بمن ملكت أيمانكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن أذنبوا فكلوا عقوباتهم إلى شراركم، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِى حَجَّةِ الْوَدَاعِ: « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ».(٣)

خطبة الخليفة أبي بكر الصديق عند توليه الخلافة

روى الطبري في تاريخه ٢/ ١٢٧ -١٢٨:

عن عاصم بن عدي، قال: نادى منادي أبي بكر، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ: ليتم بعث أسامة؛ ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.

وقام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يأيها الناس، إنما أنا مثلكم؛ وإني لا أدري لعكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق عليه السلام إن الله اصطفى محمداً على العالمين

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ص ١٤٨، وأبا نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠) عن جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في الكبير بأسانيد، مجمع الزوائد ٣/ ٢٧٢.

(٣) البخاري (كتاب الديات ـ باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى (وَمَنْ أَحْيَاهَا).

وعصمه من الآفات؛ وإنما أنا متبع ولست بمبتدع؛ فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني؛ وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها؛ ألا وإن لي شيطانًا يعتريني؛ فإذا أتاني فاجتنبوني؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم؛ وأنتم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه؛ فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا؛ ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال؛ فإن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم؛ فإياكم أن تكونوا أمثالهم.

الجد الجد! والوحا الوحا! والنجاء النجاء! فإن وراءكم طالبا حثيثاً، أجلاً مره سريع.

احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات.

وقام أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه؛ فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وخطأ ظفرتم به، وضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية؛ لحين فقركم وحاجتكم.

اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم. أين كانوا أمس، وأين هم اليوم! أين الجبارون! وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب! قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميماً؛ قد تركت عليهم القالات؛ الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات.

وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؛ قد بعدوا ونسى ذكرهم، وصاروا كلا شيء. ألا إن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفاً بعدهم؛ فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا؛ وإن اغتررنا كنا مثلهم!

أين الوضاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم! صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم! أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب! قد تركوها لمن خلفهم؛ فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً! أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؛ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما فدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت.

ألا لا إله إلا الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به سوءًا، إلا بطاعته واتباع أمره. واعلموا أنكم عبيد مدينون، وإن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته؛ أما أنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة.

وخرج أبو بكر حتى أتاهم، فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؛ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل! فأذن له، ثم قال: يأيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع؛ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب؛ فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاهون.

وروى الطبري في تاريخه ٢/ ١٢٠:

حدثنا أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة؛ وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر؛ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال....

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس؛ فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم؛ فإن أحسنت فأعينوني؛ وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله!

خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند توليه الخلافة

صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: اللهم إني شديد فليِّنِّي، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخِّني.

وروي أن أول خطبة كانت قوله: إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم بعد صاحبيّ، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن أهل الجزء - يعني الكفاية - والأمانة، والله لئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم.

فقال من شهد خطبته ورواها عنه: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا.

وروي أنه لما ولي الخلافة صعد المنبر وهمّ أن يجلس مكان أبي بكر فقال: ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر. فنزل مرقاة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اقرؤوا القرآن

تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم؛ إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

وفي رواية أخرى أنه بعد يومين من استخلافه تحدث الناس فيما كانوا يخافون من شدته، وبطشه، وأدرك عمر أنه لابد من تجليه الأمر بنفسه، فصعد المنبر وخطبهم فذكر بعض شأنه مع النبي وخليفته، وكيف أنهما توفيا وهما عنه راضيان،

ثم قال:... ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خدّه على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق. وإني بعد شدتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها؛ لكم علي أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا في وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج منه إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسُدّ ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمّركم ـ أبقيكم مدة طويلة ـ في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم، فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وجاء في رواية: إنما مثل العرب مثل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق.

خطبة عثمان بن عفان أول توليه الخلافة

وروى الطبري في تاريخه ٢/ ٤٢٨: أنه لما بايع أهل الشورى عثمان بن عفان، خرج وهو أشدّهم كآبة، فأتى منبر رسول ﷺ، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، وقال: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه؛ فلقد أتيتم، صبَّحتم أو مسَّيتم؛ ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا، ولا يغرنَّكم بالله الغرور.

اعتبروا بمن مضى، ثم جدُّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدينا وإخوانها الذين آثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا؛ ألم تلفظهم!

ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة؛ فإنّ الله قد ضرب لها مثلا؛ وللّذي هو خير، فقال ﷻ: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥ – ٤٦] بايعونه.

وكان أوّل كتاب كتبه عثمان إلى عمّاله: أمّا بعد؛ فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدّم إليهم أن يكونوا جباةً؛ وإنّ صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا جباة، وليوشكنّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة؛ فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء.

ألا وإنّ أعدل السّيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم؛ ثم تثنّوا بالذمّة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم. ثم العدوّ الذي تنتابون؛ فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

قالوا: وكان أوّل كتاب كتبه عثمان بن عفان إلى أمراء الأجناد في الفروج:

أمّا بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم؛ وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنّا، بل كان عن ملإ منّا، ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم؛ فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النّظر فيه، والقيام عليه.

قالوا: وكان أوّل كتاب كتبه إلى عمّال الخراج: أمّا بعد، فإن الله خلق الخلق بالحقّ؛ فلا يقبل إلا الحقّ، خذوا الحقّ وأعطوا الحقّ به.

والأمانة الأمانة؛ قوموا عليها، ولا تكونوا أوّل من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم.

والوفاء الوفاء؛ لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد؛ فإن الله خصم لمن ظلمهم.

قالوا: وكان كتابه إلى العامّة: أمّا بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتّباع؛ فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم؛ فإنّ أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن؛ فإنّ رسول الله ﷺ قال: الكفر في العجمة؛ فإذا استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا.

وروى الطبري في تاريخه ٣/ ٩:

عن عون بن عبد الله بن عتبة، قال: خطب عثمان الناس بعدما بويع، فقال:

أمَّا بعد؛ فإني قد حمِّلت وقد قبلت؛ ألا وإني متّبع ولست بمبتدع؛ ألا وإنّ لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنَّة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتّباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنُّ سنة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملإ، والكفّ عنكم إلاّ فيما استوجبتم. ألا وإن الدنيا خضرة قد شهّيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها.

خطبة الإمام عليّ بن أبي طالب عند توليه الخلافة

روى الطبري في تاريخه ٣/ ١٦:

قال الإمام علي: إنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتابًا هاديًا بيّن فيه الخير والشرّ، فخذوا بالخير ودعوا الشرّ.

الفرائض أدّوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنّة. إنّ الله حرَّم حرمًا غير مجهولة، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين.

والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده إلا بالحقّ، لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب.

بادروا أمر العامة، وخاصّة أحدكم الموت، فإنّ الناس أمامكم، وإنّ ما من خلفكم الساعة تحدوكم. تخفّفوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم.

اتّقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عزّ وجلّ ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرّ فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد الله على مترادف نعمه أفضل ما نطق به اللسان، وشكره على متناسق كرمه آكد واجب على كل من أوتي قوة البيان، والصلاة والسلام عل من أعجز بنوابغ كلمه مداره الفصحاء، وعلى آله وأصحابه قادة أعاظم البلغاء.

وبعد..

فلما كانت وظيفتي - وهي الاشتغال بالكتابة في مكتبة الجامع الأزهر الشريف - من شأنها أني أطلع على معظم ما في هذه المكتبة من الأسرار الجليلة وأتصفح كثيرًا من كتبها المفيدة، فبينما أنا أطالع في كتاب منها إذ أعثرني حسن حظي على عهد جليل لفارس حلبة البيان؛ أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى الأشتر النخعي لما ولاه على مصر حين اضطرب محمد بن أبي بكر، ورأيت أنه قد جمع أمهات السياسة وأصول الإدارة في قواعد حَوَت من فصاحة الكلم وبلاغة الكلام وحسن الأسلوب ما لا يمكن لعاجز مثلي أن يصفه؛ فدهشت جدًّا لما لم أجد لهذا الكتاب تداولاً على ألسن المتكلمين بالعربية خصوصًا المشتغلين بتعلمها من طلبة الأزهر والمدارس مع أنه كان من الواجب أن مثل هذا الكتاب يُحفظ في الصدور لا في السطور، وفكرت في سبب ذلك؛ فرجحت أنه يرجع إلى أمرين: أولهما، ندرة وجود الكتاب المشتمل على هذا العهد وعدم تيسر الحصول عليه لكثير من الطلاب؛ ثانيهما، ما اعتدناه من التكاسل عن مطالعة الكتب إذا كانت كبيرة الحجم. فأخذت على نفسي أن أزيل هذين المانعين؛ وذلك بطبع هذا العهد مستقلاً عن الكتاب ليكون في زهادة ثمنه وصغر حجمه ما يحدو بمرتادي البلاغة والساعين وراء تحصيل ملكة الإنشاء إلى الحصول عليه ومطالعته المرة بعد المرة بل حفظه، كما أني أخذت على نفسي أيضًا أن أنشر تباعًا ما أقف عليه من أمثال هذا الكتاب النفيس؛ علني بذلك أؤدي بعض ما يجب عليَّ من الخدمة للغتي وأمتي وديني.. والله المستعان، وهو حسبي، وبه ثقتي.

أحمد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاَّه مصر؛ جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله - سبحانه - بقلبه ويده ولسانه؛ فإنه - جل اسمه - قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات، ويزعها عند الجمحات[١]؛ فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولادة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يُستدل على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسن عباده؛ فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح.

فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك[٢]؛ فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل[٣] وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ[٤]؛ فأعطهم من عفوك

(١) ويزعها: أي يكفها عن مطامعها إذا جمحت عليه فلم تنقد لقائد العقل الصحيح والشرع الصريح.

(٢) شح: ابخل بنفسك عن الوقوع في غير الحل؛ فليس الحرص على النفس إيفاءها كل ما تحب، بل من الحرص عليها أن تحمل على ما تكره إن كان ذلك في الحق؛ فرب محبوب يعقب هلاكًا ومكروه يخمد عاقبة.

(٣) يفرط: يسبق، والزلل: الخطأ.

(٤) يؤتى: مبني للمجهول، نائب فاعله على أيديهم، وأصله: تؤتى السيئات على أيديهم... إلخ.

وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصحفه؛ فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاَّك، وقد استكفاك أمرهم[١] وابتلاك بهم، ولا تنصبن نفسك لحرب الله[٢]؛ فإنه لا يدي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة[٣]، ولا تسرعن إلى باردة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمَّر آمر فأطاع[٤]؛ فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير.

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة[٥] فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك[٦] ويكف عنك من غربك ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

إياك ومساماة الله في عظمته[٧] والتشبه به في جبروته؛ فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك[٨]؛ فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض

---

(١) استكفاك: طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم.

(٢) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم والجور، ولا يدي لك بنقمته: أي ليس لك يدان تدفع نقمته؛ أي لا طاقة لك بها.

(٣) بجح به: كفرح لفظًا ومعنى، والبادرة: ما يبدر من الحدة عند الغضب في قول أو فعل، والمندوحة: المتسع؛ أي المخلص.

(٤) مؤمَّر كمعظم: أي مسلط، والإدغال: الفساد، ومنهكة: مضعفة؛ نهكه: أضعفه، والغير بكسر ففتح: حادثات الدهر بتبدل الدول. والاغترار بالسلطة: تقرُّب منها؛ أي تعرض للوقوع فيها.

(٥) الأبهة بضم الهمزة وتشديد الباء مفتوحة: العظمة والكبرياء، والمخيلة بفتح فكسر: الخيلاء والعجب.

(٦) الطماح ككتاب: النشوز والجماح، ويطامن: أي يخفض منه، والغرب بفتح فسكون: الحدة، ويفيء: يرجع إليك بما عزب؛ أي غاب، من عقلك.

(٧) المساماة: المباراة في السمو؛ أي العلو.

(٨) من لك فيه هوى: أي لك إليه ميل خاص.

حجته[١] وكان لله حربًا حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم؛ فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية؛ فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة[٢]، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف[٣] وأقل شكرًا عند الإعطاء وأبطأ عذرًا عند المنع وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة[٤]، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين[٥] والعدة للأعداء العامة من الأمة؛ فليكن صفوك لهم وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس[٦]؛ فإن في الناس عيوبًا الوالي أحق من سترها[٧]، فلا تكشفن عما غاب عنك منها؛ فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد[٨]، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا

---

(١) أدحض: أبطل، وحربًا: أي محاربًا، وينزع كيضرب: أي يقلع عن ظلمه.

(٢) يجحف: أي يذهب برضا الخاصة فلا ينفع الثاني معه، أما لو أسخط الخاصة ورضي العامة فلا أثر لسخط الخاصة فهو مغتفر.

(٣) الإلحاف: الإلحاح والشدة في السؤال.

(٤) من أهل الخاصة متعلق بأثقل وما بعده من أفاعل التفضيل.

(٥) جماع الشيء بالكسر: جمعه؛ أي جماعة السلام، والعامة خبر عماد وما بعده.

(٦) أشنأهم: أبغضهم، والأطلب للمعائب: الأشد طلبًا لها.

(٧) ستر: ماضٍ صلة مَن؛ أي أحق الساترين لها بالستر.

(٨) أي احلل عقد الأحقاد من قلوب الناس بحسن السيرة معهم، واقطع عنك أسباب الأوتار؛ أي العداوات، بترك الإساءة إلى الرعية، والوتر بالكسر: العداوة، وتغاب: أي تغافل، والساعي هو النمام بمعائب الناس.

يصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساعٍ؛ فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل[١] ويعدك الفقر، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور؛ فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى[٢] يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة[٣]؛ فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف[٤] ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم[٥] ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفًا وأقل لغيرك إلفًا[٦]؛ فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك[٧] وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعًا من هواك حيث وقع[٨].

والصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك[٩] ولا يبجحوك بباطل لم

---

(١) الفضل هنا الإحسان بالبذل، ويعدك: يخوفك من الفقر لو بذلت، والشره بالتحريك: أشد الحرص.

(٢) غرائز: طبائع متفرقة تجتمع في سوء الظن بكرم الله وفضله.

(٣) بطانه الرجل بالكسر: خاصته، وهو من بطانة الثوب خلاف ظهارته، والأثمة: جمع آثم، فاعل الإثم؛ أي الذنب، والظلمة: جمع ظالم.

(٤) منهم: متعلق بالخلف أو متعلق بواجد، ومن مستعمله في المعنى الاسمي بمعنى بدل.

(٥) الآصار: جمع إصر بالكسر، وهو الذنب والإثم، وكذلك الأوزار.

(٦) الإلف بالكسر: الألفة والمحبة.

(٧) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحق المر، ومرارة الحق صعوبته على نفس الوالي.

(٨) واقعًا: حال مما كره الله؛ أي لا يساعدك على ما كره الله حال كونه نازلاً من ميلك إليه أي منزلة، أي وإن كان من أشد مرغوباتك.

(٩) رضهم: أي عودهم على أن لا يطروك؛ أي يزيدوا في مدحك، ولا يبجحوك: أي يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن فعلته، والزهو بالفتح: العجب، وتدني: أي تقرب من العزة؛ أي الكبر.

تفعله؛ فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة. ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء؛ فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاًّ منهم ما ألزم نفسه[١].

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راعٍ برعيته من إحسانه إليهم[٢] وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم[٣]، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك؛ فإن حسن ظنك يقطع عنك نصبًا طويلاً[٤]، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده[٥]، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها. وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء[٦] في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله، ومنها كُتاب العامة والخاصة[٧]، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال

(١) فإن المسيء ألزم نفسه استحقاق العقاب، والمحسن ألزمها استحقاق الكرامة.

(٢) إذا أحسن الوالي إلى رعيته وثق من قلوبهم بالطاعة له؛ فإن الإحسان قياد الإنسان فيحسن ظنه بهم بخلاف ما لو أساء إليهم؛ فإن الإساءة تحدث العداوة في نفوسهم فينتهزون الفرصة لعصيانه فيسوء ظنه بهم.

(٣) قبلهم بكسر ففتح: أي عندهم.

(٤) النصب بالتحريك: التعب.

(٥) البلاء هنا الصنع مطلقًا؛ حسنًا أو سيئًا، وتفسير العبارة واضح مما قدمنا.

(٦) المنافثة: المحادثة.

(٧) كتاب كرمان: جمع كاتب، والكتبة منهم عاملون للعامة كالمحاسبين والمحررين في المعتاد من شؤون العامة كالخراج والمظالم، ومنهم مختصون بالحاكم يفضي إليهم بأسراره ويوليهم النظر فيما يكتب لأوليائه

الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلاً قد سمى الله سهمه[١] ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظًا.

فالجنود - بإذن الله - حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم[٢]. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب؛ لما يحكمون من المعاقد[٣] ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم[٤] ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم[٥]، وفي الله لكلٍ سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله

وأعدائه وما يقرر في شؤون حربه وسلمه مثلًا.

(١) سهمه: نصيبه من الحق.

(٢) أي يكون محيطًا بجميع حاجاتهم دافعًا لها.

(٣) هو وما بعده نشر على ترتيب اللف. والمعاقد: العقود في البيع والشراء وما شابهها مما هو من شأن القضاة، وجمع المنافع من حفظ الأمن وجباية الخراج وتصريف الناس في منافعهم العامة ذلك شأن العمال، والمؤتمنون هم الكتاب.

(٤) الضمير للتجار وذوي الصناعات؛ أي أنهم قوام لمن قبلهم بسبب المرافق؛ أي المنافع، التي يجتمعون لأجلها ولها يقيمون الأسواق، ويكفون سائر الطبقات من الترفق؛ أي التكسب، بأيديهم ما كسب غيرهم من سائر الطبقات.

(٥) رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل.

فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبًا[١]، وأفضلهم حلمًا، ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرؤف بالضعفاء وينبو على الأقوياء[٢]، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.

ثم الصق بذوي الأحساب[٣] وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة؛ فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به[٤] ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم به[٥] وإن قل؛ فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها؛ فإن لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به وللجسيم موقعًا لا يستغنون عنه.

وليكن آثر رؤوس جندك عندك[٦] من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدًا في جهاد العدو؛

---

(١) جيب القميص: طوقه، ويقال نقي الجيب: أي طاهر الصدر والقلب. والحلم: العقل.

(٢) ينبو: يشتد ويعلو عليهم ليكف أيديهم عن ظلم الضعفاء.

(٣) ثم الصق.. إلخ: تبيين للقبيل الذي يؤخذ منه الجند ويكون منه رؤساء، وشرح لأوصافهم. وجماع من الكرم: مجموع منه. وشعب بضم ففتح: جمع شعبة. والعرف: المعروف.

(٤) تفاقم الأمر: عظم؛ أي لا تعد شيئًا قويتهم به غاية في العظم زائدًا عما يستحقون، فكل شيء قويتهم به واجب عليك إتيانه وهم مستحقون لنيله.

(٥) أي لا تعد شيئًا من تلطفك معهم حقيرًا فتتركه لحقارته؛ بل كل تلطف وإن قل فله موقع من قلوبهم.

(٦) آثر: أي أفضل وأعلى منزلة. فليكن أفضل رؤساء الجند من واسى الجند؛ أي ساعدهم، بمعونته لهم. وأفضل عليهم: أي أفاض وجاد من جدته. والجدة بكسر ففتح: الغنى؛ والمراد ما بيده من أرزاق الجند وما سلم إليه من وظائف المجاهدين لا يقتر عليهم في الفرض ولا ينقصهم شيئًا مما فرض لهم بل يجعل العطاء شاملاً لمن تركوهم في الديار من خلوف الأهلين - جمع خلف بفتح فسكون: من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال.

فإن عطفك عليهم[١] يعطف قلوبهم عليك. وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدرهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم[٢] وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم[٣]؛ فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله. ثم اعرف لكل امرء منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرء إلى غيره[٤]، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرًا، ولا ضعة امرء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيمًا.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب[٥] ويشتبه عليك من الأمور؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] فالرد إلى الله الأخذ بمحكم[٦] كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة[٧].

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك[٨] في نفسك؛ ممن لا تضيق به الأمور،

---

(١) عليهم: أي على الرؤساء.

(٢) حيطة بكسر الحاء: من مصادر حاطه بمعنى حفظه وصانه؛ أي بمحافظتهم على ولاة أمورهم وحرصهم على بقائهم وأن لا يستثقلوا دولتهم ولا يستبطئوا انقطاع مدتهم بل يعدون زمنهم قصيرًا يطلبون طوله.

(٣) ما صنع أهل الأعمال العظيمة منهم. فتعديد ذلك يهز الشجاع أي يحركه للإقدام، ويحرض الناكل أي المتأخر القاعد.

(٤) لا تنسبن عمل امرء إلى غيره ولا تقصر به في الجزاء دون ما يبلغ منتهى عمله الجميل.

(٥) ضلع فلانا كمنع: ضربه في ضلعه، والمراد ما يشكل عليك.

(٦) محكم الكتاب: نصه الصريح.

(٧) سنه الرسول كلها جامعة ولكن رويت عنه سنن افترقت بها الآراء، فإذا أخذت فخذ بما أجمع عليه مما لا يختلف في نسبته إليه.

(٨) ثم اختر.. إلخ: انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

ولا تمحكه الخصوم[١]، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفهُ[٢]، ولا تشرف نفسه على طمع[٣]، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه[٤]، أوقفهم في الشبهات[٥]، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرُّمًا بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء[٦]، ولا يستميله إغراء؛ وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه[٧]، وأفسح لهُ في البذل ما يزيل علته[٨] وثقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك[٩] ليأمن بذلك اغتيال الرجال لهُ عندك. فانظر في ذلك نظرًا بليغًا؛ فإن هذا الدين قد كان أسيرًا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا.

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارًا[١٠] ولا تولهم محاباة وأثرة؛ فإنها جماع من

(١) أمحكه: جعله محكان؛ أي عسر الخلق، أو أغضبه؛ أي لا تحمله مخاصمة الخصوم على اللجاج والإصرار على رأيه. والزلة بالفتح: السقطة في الخطأ.

(٢) حصر كفرح: ضاق صدره؛ أي لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق.

(٣) الإشراف على الشيء: الاطلاع عليه من فوق، فالطمع من سافلات الأمور من نظر إليه وهو في أعلى منزلة النزاهة لحقته وصمة النقيصة، فما ظنك بمن هبط إليه وتناوله.

(٤) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأول فهم وأقربه دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمل.

(٥) هذا وما بعده اتباع لأفضل رعيتك، والشبهات: ما لا يتضح الحكم فيها بالنص فينبغي الوقوف عن القضاء حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. والتبرم: الملل والضجر. وأصرمهم: أقطعهم للخصومة.

(٦) لا يزدهيه: لا يستخفه زيادة الثناء عليه.

(٧) تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف، وضمير قضائه لأفضل الرعية الموصوف بالأوصاف السابقة.

(٨) البذل: العطاء؛ أي أوسع له حتى يكون ما يأخذه كافيًا لمعيشة مثله وحفظ منزلته.

(٩) إذا رفعت منزلته عندك هابته الخاصة كما تهابه العامة فلا يجرؤ أحد على الوشاية به عندك خوفًا منك وإجلالاً لمن أجللته.

(١٠) ولِّهم الأعمال بالامتحان لا محاباة؛ أي اختصاصًا وميلاً منك لمعاونتهم. وأثرة بالتحريك: أي استبدادًا بلا مشورة؛ فإنهما - أي المحاباة والأثرة - يجمعان الجور والخيانة.

شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء[١] من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة؛ فإنهم أكرم أخلاقًا وأصح أعراضًا وأقل في المطامع إشرافًا وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا، ثم أسبغ عليهم الأرزاق[٢]؛ فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك[٣]، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم[٤]؛ فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم[٥] على استعمال الأمانة والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان؛ فإن أحدٌ منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك[٦] اكتفيت بذلك شاهدًا فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمتهُ بالخيانة وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله؛ فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلا[٧] أو

---

(١) توخَّ: أي اطلب وتحر أهل التجربة.. إلخ. والقدم بالتحريك: واحدة الأقدام؛ أي الخطوة السابقة، وأهلها هم الأولون.

(٢) أسبغ عليه الرزق: أكمله وأوسع له فيه.

(٣) نقصوا في أدائها أو خانوا.

(٤) العيون: الرقباء.

(٥) حدوة: أي سوق لهم وحث.

(٦) اجتمعت.. إلخ: أي اتفقت عليها أخبار الرقباء.

(٧) إذا شكوا ثقل المضروب من مال الخراج أو نزول علة سماوية بزرعهم أضرت بثمراته أو انقطاع شرب بالكسر - أي ماء في بلاد تسقى بالأنهار - أو انقطاع بالة - أي ما يبل الأرض من ندى ومطر فيما تسقى بالمطر - أو إحالة أرض بكسر همزة إحالة - أي تحويلها البذر إلى فساد بالتعفن لما اغتمرها؛ أي عمها، من الغرق فصارت غمقة كفرحة؛ أي غلب عليها الندى والرطوبة حتى صار البذر فيها غمقًا ككتف أي

علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم؛ فإنه ذخر يعودون به عليك في عِمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم[١] معتمدًا فضل قوتهم[٢] بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عوَّلت فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيبة أنفسهم بهِ[٣]؛ فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتي خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع[٤] وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم انظر في حال كتَّابك[٥]؛ فولِّ على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق[٦]؛ ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة[٧] عن إيراد مكاتبات عمالك

له رائحة خمة وفساد ونقصت لذلك غلاتها، أو أجحف العطش أي ذهب بمادة الغذاء من الأرض فلم تنبت؛ فعليك عند الشكوى أن تخفف عنهم.

(١) التبجح: السرور بما يرى من حسن عمله في العدل.

(٢) أي متخذًا زيادة قوتهم عمادًا لك تستند إليه عند الحاجة وإنهم يكونون سندا بما ذخرت عندهم من إجمامك؛ أي إراحتك لهم. والثقة منصوب بالعطف على فضل.

(٣) طيبة بكسر الطاء: مصدر طاب وهو علة لاحتملوه؛ أي لطيب أنفسهم باحتماله، فإن العمران ما دام قائمًا ونامِيًا فكل ما حملت أهله سهل عليهم أن يحتملوا. والإعواز: الفقر والحاجة.

(٤) لتطلع أنفسهم إلى جمع المال ادخارًا لما بعد زمن الولاية إذا عزلوا.

(٥) ثم انظر.. إلخ: انتقال من الكلام في أهل الخراج إلى الكلام في الكتاب جمع كاتب.

(٦) بأجمعهم متعلق باخصص؛ أي ما يكون من رسائلك حاويًا لشيء من المكائد للأعداء وما يشبه ذلك من أسرارك فاخصصه بمن فاق غيره في جمع الأخلاق الصالحة ولا تبطره؛ أي لا تطغيه، الكرامة فيتجرأ على مخالفتك في حضور ملأ وجماعة من الناس فيضر ذلك بمنزلتك منهم.

(٧) لا تكون غفلته موجبة لتقصيره في إطلاعك على ما يرد من عمالك ولا في إصدار الأجوبة عنه على وجه الصواب؛ بل يكون من النباهة والحذق بحيث لا يفوته شيء من ذلك.

عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يضعف عقدًا اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك[١]، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور؛ فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك[٢] وحسن الظن منك؛ فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم[٣] وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرًا وأعرفهم بالأمانة وجهًا؛ فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسًا منهم[٤] لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه أُلزمته[٥].

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات[٦] وأوص بهم خيرًا المقيم منهم والمضطرب بماله[٧] والمترفق ببدنه؛ فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك

(١) أي يكون خبيرًا بطرق المعاملات بحيث إذا عقد لك عقدًا في أي نوع منها لا يكون ضعيفًا بل يكون محكمًا جزيل الفائدة لك وإذا وقعت مع أحد في عقد كان ضرره عليك لا يعجز عن حل ذلك العقد.

(٢) الفراسة بالكسر: قوة الظن وحسن النظر في الأمور، والاستنامة: السكون والثقة؛ أي لا يكون انتخاب الكتاب تابعًا لميلك الخاص.

(٣) يتعرفون للفراسات: أي يتوسلون إليها لتعرفهم.

(٤) أي اجعل لرئاسة كل دائرة من دوائر الأعمال رئيسًا من الكتاب مقتدرًا على ضبطها لا يقهره عظيم تلك الأعمال ولا يخرج عن ضبطه كثيرها.

(٥) إذا تغابيت؛ أي تغافلت، عن عيب في كتابك كان ذلك العيب لاصقًا بك.

(٦) ثم استوص: انتقال من الكلام في الكُتاب إلى الكلام في التجار والصناع.

(٧) المتردد بأمواله بين البلدان، والمترفق: المتكسب، والمرافق: تقدم تفسيرها بالمنافع، وحقيقتها - وهي المراد هنا - ما به يتم الانتفاع كالآنية والأدوات وما يشبه ذلك.

وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها[١] ولا يجترئون عليها. فإنهم سلم لا تخاف بائقته[٢] وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقًا فاحشًا وشحًا قبيحًا[٣] واحتكارًا للمنافع وتحكمًا في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب في الولاة. فامنع من الاحتكار؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه، وليكن البيع بيعًا سمحًا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع[٤]، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه[٥] فنكل به وعاقب في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البوسى والزمنى[٦]؛ فإن في هذه الطبقة قانعًا ومعترًّا[٧]، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك وقسمًا من غلات صوافي الإسلام في كل بلد[٨]؛ فإن للأقصى

---

(١) أي ويجلبونها من أمكنة بحيث لا يمكن التئام الناس واجتماعهم في مواضع تلك المرافق من تلك الأمكنة.

(٢) فإنهم: علة لاستوص وأوص، والبائقة: الداهية. والتجار والصناع مسالمون لا تخشى منهم داهية العصيان.

(٣) الضيق: عسر المعاملة، والشح: البخل. والاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلا بأثمان فاحشة.

(٤) المبتاع: المشتري.

(٥) قارف: أي خالط، والحكرة بالضم: الاحتكار. فمن أتى عمل الاحتكار بعد النهي عنه فنكل به؛ أي أوقع به النكال والعذاب عقوبةً له لكن من غير إسراف في العقوبة ولا تجاوز عن حد العدل فيها.

(٦) البوسى بضم أوله: شدة الفقر. والزمني بفتح أوله: جمع زمين وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاي؛ أي العاهة، يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب.

(٧) القانع: السائل من قنع كمنع؛ أي سأل وخضع وذل، وقد تبدل القاف كافًا فيقال كنع. والمعتر بتشديد الراء: المتعرض للعطاء بلا سؤال. واستحفظك: طلب منك حفظه.

(٨) صوافي الإسلام: جمع صافية وهي أرض الغنيمة، وغلاتها: ثمارتها.

منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه. فلا يشغلنك عنهم بطر[١]؛ فإنك لا تعذر بتضييعك التافه[٢] لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم[٣] ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون[٤] وتحقره الرجال. ففرغ لأولئك ثقتك[٥] من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه[٦]؛ فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكلٌّ فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتم[٧] وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبَّروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا[٨] تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسًا عامًّا فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك[٩] من أحراسك وشرطك حتى

---

(١) الطغيان بالنعمة.

(٢) التافه القليل لا تعذر بتضييعه إذا أحكمت وأتقنت الكثير المهم.

(٣) لا تشخص: أي لا تصرف همك؛ أي اهتمامك، عن ملاحظة شؤونهم. وصعر خده: أماله إعجابًا وكبرًا.

(٤) تقتحمه العين: تكره أن تنظر إليه احتقارًا

(٥) فرغ: أي اجعل للبحث عنهم أشخاصًا يتفرغون لمعرفة أحوالهم يكونون ممن تثق بهم يخافون الله ويتواضعون لعظمته لا يأنفون من تعرف حال الفقراء ليرفعوها إليك.

(٦) بالأعذار إلى الله: بما يقدم لك عذرًا عنده.

(٧) الأيتام، وذوو الرقة في السن: المتقدمون فيه.

(٨) لذوي الحاجات أي المتظلمين تتفرغ لهم فيه بشخصك للنظر في مظالمهم .

(٩) تأمر بأن يقعد عنهم ولا يتعرض لهم جندك.. إلخ، والأحراس: جمع حرس بالتحريك؛ من يحرس الحاكم من وصول المكروه، والشرط بضم ففتح: طائفة من أعوان الحاكم وهم المعروفون الآن بالضابطة واحده شرطة بضم فسكون.

يكلمك متكلمهم غير متتعتع[١]؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير موطن[٢]:«لن تقدس أمة[٣] لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع». ثم احتمل الخرق منهم والعيَّ[٤] ونحِّ عنهم الضيق والأنف[٥]، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئًا[٦] وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيى عنه كتَّابك[٧]، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك[٨]، وامض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام[٩] وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك: إقامة فرائضه الّتي هي له خاصة؛ فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص[١٠]

---

(١) التعتعة في الكلام التردد فيه من عجز وعيّ، والمراد غير خائف تعبيرًا باللازم.

(٢) أي في مواطن كثيرة.

(٣) التقديس: التطهير؛ أي لا يطهر الله أمة.. إلخ.

(٤) الخرق بالضم: العنف ضد الرفق، والعيّ بالكسر: العجز عن النطق؛ أي لا تضجر من هذا ولا تغضب لذاك.

(٥) الضيق: ضيق الصدر بسوء الخلق، والأنف محركة: الاستنكاف والاستكبار، وأكناف الرحمة: أطرافها.

(٦) سهلاً لا تخشنه باستكثاره والمنّ به، وإذا منعت فامنع بلطف وتقديم عذر.

(٧) يعيى: يعجز.

(٨) حرج يحرج من باب تعب: ضاق. والأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ويحبون المماطلة في قضائها استجلابًا للمنفعة أو إظهارًا للجبروت.

(٩) أجزلها: أعظمها.

(١٠) غير مثلوم: أي غير مخدوش بشيء من التقصير ولا مخروق بالرياء. وبالغًا حال بعد الأحوال السابقة: أي وإن بلغ من إتعاب بدنك أي مبلغ.

بالغًا من بدنك ما بلغ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفِّرًا ولا مضيِّعًا[١]؛ فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيمًا».

وأما بعد، فلا تطوِّلن احتجابك عن رعيتك؛ فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلّة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل، وإنّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه النّاس به من الأمور، وليست على الحق سمات[٢] تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك[٣] من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك[٤] مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة[٥] أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلّة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال[٦] ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة[٧] ولا

---

(١) التنفير بالتطويل، والتضييع بالنقص في الأركان، والمطلوب التوسط.

(٢) سمات جمع سمة بكسر ففتح: العلامة؛ أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب، وإنما يعرف ذلك بالامتحان ولا يكون إلا بالمخالطة.

(٣) فلأي سبب تحتجب عن الناس في أداء حقهم أو في عمل تمنحه إياهم.

(٤) البذل: العطاء؛ فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك فلا حاجة للاحتجاب.

(٥) شكاة بالفتح: شكاية.

(٦) فاحسم: أي اقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم وإنما يكون بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامة.

(٧) الإقطاع: المنحة من الأرض، والقطيعة: الممنوح منها، والحامة كالطامة: الخاصة والقرابة. والاعتقاد: الامتلاك، والعقدة بالضم: الضيعة، واعتقاد الضيعة: اقتناؤها. وإذا اقتنوا ضيعة فربما أضروا بمن يليها؛ أي يقرب منها، من الناس في شرب بالكسر وهو النصيب في الماء.

يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك[١] وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرًا محتسبًا واقعًا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه؛ فإن مغبة ذلك محمودة[٢].

وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك[٣] واعدل عنك ظنونهم بإصحارك؛ فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقًا برعيتك وإعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق، ولا تدفعن صلحًا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا؛ فإن في الصلح دعة لجنودك[٤] وراحة من همومك وأمنًا لبلادك.

ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه؛ فإن العدو ربما قارب ليتغفل[٥]، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة[٦]

---

(١) مهنأه: منفعته الهنيئة.

(٢) المغبة كمحبة: العاقبة، وإلزام الحق لمن لزمهم وإن ثقل على الوالي وعليهم فهو محمود العاقبة بحفظ الدولة في الدنيا ونيل السعادة في الآخرة.

(٣) وإن فعلت فعلاً ظنت الرعية أن فيه حيفًا؛ أي ظلمًا، فأصحر؛ أي ابرز لهم وبين عذرك فيهم. وعدل عنه كذا: نحاه عنه. والإصحار: الظهور من أصحر إذا برز في الصحراء. ورياضة: تعويدًا لنفسك على العدل. والإعذار: تقديم العذر أو إبداؤه.

(٤) الدعة محركة: الراحة.

(٥) قارب: أي تقرب منك بالصلح ليلقي عليك غفلة عنه فيغدرك فيها.

(٦) أصل معنى الذمة: وجدان مودع في جبلة الإنسان ينبهه لرعاية حق ذوي الحقوق عليه ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها ثم أطلقت على معنى العهد، وجعل العهد لباسًا لمشابهته له في الوقاية من الضرر. وحاطه: حفظه.

فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت[١]؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعًا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود[٢] وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين[٣] لما استوبلوا من عواقب الغدر[٤]، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك[٥] ولا تختلن عدوك؛ فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته[٦] وحريمًا يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره[٧]؛ فلا إدغال ولا مدالسة[٨] ولا خداع فيه. ولا تعقد عقدًا تجوز فيه العلل[٩]، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه

---

(١) الجنة بالضم: الوقاية؛ أي حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

(٢) الناس مبتدأ وأشد خبر والجملة خبر ليس؛ يعني أن الناس لم يجتمعوا على فريضة من فرائض الله أشد من اجتماعهم على تعظيم الوفاء بالعهود مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم حتى إن المشركين التزموا الوفاء فيما بينهم فأولى أن يلتزمه المسلمون.

(٣) أي حال كونهم دون المسلمين في الأخلاق والعقائد.

(٤) لأنهم وجدوا عواقب الغدر وبيلة؛ أي مهلكة، وما والفعل بعدها في تأويل مصدر؛ أي استيبالهم.

(٥) خاس بعهده: خان ونقضه، والختل: الخداع.

(٦) الأمن: الأمان، وأفضاه هنا بمعنى أفشاه وأصله المزيد من فضا فضوًا من باب قعد؛ أي اتسع، فالرباعي بمعنى وسعه والسعة مجازية يراد بها الإفشاء والانتشار، والحريم: ما حرم عليك أن تمسه، والمنعة بالتحريك: ما تمتنع به من القوة.

(٧) يستفيضون: أي يفزعون إليه بسرعة.

(٨) الإدغال: الإفساد، والمدالسة: الخيانة.

(٩) العلل: جمع علة وهي في العقد والكلام بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته، ولحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض، فإذا تعلل بهذا المعاقد لك وطلب شيئًا لا يوافق ما أكدته وأخذت عليه الميثاق فلا تعول عليه وكذلك لو رأيت ثقلاً من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه فخذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق؛ فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله فيه طلبة[١] فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء وسفكها بغير حلها؛ فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. فلا تقوِّين سلطانك بسفك دم حرام؛ فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن[٢]، وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك[٣] أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء[٤]؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

---

(١) وأن تحيط عطف على تبعة؛ أي وتخاف أن تتوجه عليك من الله مطالبة بحقه في الوفاء الذي غدرته ويأخذ الطلب بجميع أطرافك فلا يمكنك التخلص منه ويصعب عليك أن تسأل الله أن يقيلك من هذه المطالبة بعفو عنك في دنيا أو آخرة بعدما تجرأت على عهده بالنقض.

(٢) القود بالتحريك: القصاص وإضافته للبدن لأنه يقع عليه.

(٣) أفرط عليك: عجل بما لم تكن تريده. أردت تأديبًا فأعقب قتلاً. وقوله فإن في الوكزة تعليل لأفرط. والوكزة بفتح فسكون: الضربة بجمع الكف بضم الجيم؛ أي قبضته، وهي المعروفة باللكمة. وقوله فلا تطمحن: أي لا يرتفعن بك كبرياء السلطان عن تأدية الدية إليهم في القتل الخطأ جواب الشرط.

(٤) الإطراء: المبالغة في الثناء، والفرصة بالضم: حادث يمكنك لو سعيت من الوصول لمقصدك، والعجب في الإنسان من أشد الفرص لتمكين الشيطان من قصده وهو محق الإحسان بما يتبعه من الغرور والتعالي بالفعل على من وصل إليه أثره.

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك[١] أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك؛ فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس[٢] قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التسقط فيها عند إمكانها[٣] أو اللجاجة فيها إذا تنكرت[٤] أو الوهن عنها إذا استوضحت؛ فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة[٥] والتغابي عما يعنى به مما قد وضح للعيون؛ فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم.

املك حمية أنفك[٦] وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك؛ واحترس من كل ذلك بكف البادرة[٧] وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من

---

(١) التزيد كالتقيد: إظهار الزيادة في الأعمال عن الواقع منها في معرض الافتخار.

(٢) المقت: البغض والسخط.

(٣) التسقط: من قولهم تسقط في الخبر يتسقط إذا أخذه قليلاً يريد به هنا التهاون، وفي نسخة التساقط بمد السين من ساقط الفرس عدوه إذا جاء مسترخيًا.

(٤) تنكرت: لم يعرف وجه الصواب فيها، واللجاجة: الإصرار على منازعة الأمر ليتم على عسر فيه، والوهن: الضعف.

(٥) احذر أن تخص نفسك بشيء تزيد به عن الناس وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامة، والتغابي: التغافل، وما يعنى به: مبني للمجهول؛ أي يهتم به.

(٦) يقال فلان حميُّ الأنف إذا كان أبيًّا يأنف الضيم؛ أي املك نفسك عند الغضب، والسورة بفتح السين وسكون الواو: الحدة، والحد بالفتح: البأس، والغرب بفتح فسكون: الحد تشبيهًا له بحد السيف ونحوه.

(٧) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من سباب ونحوه. وإطلاق اللسان يزيد الغضب اتقادًا، والسكوت يطفئ من لهبه.

نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها[١] وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة[٢] أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه[٣] مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة[٤]، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إليه راغبون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا كثيرًا والسلام.

---

(١) ضمير فيها يعود إلى جميع ما تقدم؛ أي تذكر كل ذلك واعمل فيه مثل ما رأيتنا نعمل واحذر التأويل حسب الهوى.

(٢) على متعلقة بقدرة.

(٣) يريد من العذر الواضح العدل؛ فإنه عذر لك عند من قضيت عليه وعذر عند الله فيمن أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

(٤) أي زيادة الكرامة أضعافًا.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الأول: نموذج مكة المكرمة	٧
الثاني: نموذج مجتمع الحبشة	١٥
الثالث: نموذج المدينة في المرحلة الأولى	٣٢
أولًا: بناء المسجد والمؤاخاة	٣٢
ثانيًا: توقيع وثيقة دستور المدينة وموادعة اليهود	٣٥
ثالثًا: المنافقون في المدينة	٦٤
رابعًا: المشركون في المدينة	٦٦
الرابع: نموذج المدينة في عهدها الأخير	٦٦
سياسة رسول الله ﷺ في التعايش مع الآخر خارج المدينة	٧٨
١ – سياسته مع المشركين المحاربين من قريش بعد الخندق	٧٨
٢ – سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة	٩٥
٣ – سياسته ﷺ في مقابلة الوفود العربية بعد الحديبية	٩٧
٤ – سياسته ﷺ في إرسال الرسائل الدعوية إلى العالمين	١٢٢
نتائج الدراسة	١٣٤
١ – اللحظة اللطيفة	١٤٤
٢ – ذهاب المحل	١٤٦
٣ – تفريق الأحكام	١٤٨
عَلاقة تفريق الأحكام بنظرية الاحتياط	١٥٠

٤ – واجب الوقت ١٥٣
الخاتمة ١٥٧
خطبة الوداع ١٥٩
خطبة الخليفة أبي بكر الصديق عند توليه الخلافة ١٦١
خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند توليه الخلافة ١٦٤
خطبة عثمان بن عفان أول توليه الخلافة ١٦٦
خطبة الإمام عليّ بن أبي طالب عند توليه الخلافة ١٦٨
الفهرس ١٩١

النماذج الأربعة
من هدي النبي ﷺ
في التعايش مع الآخر
الأسس والمقاصد

يتعامل المسلم مع غيره من غير المسلمين - سواء من أهل الكتاب من اليهود أو النصارى، أو من المشركين والكفار والملحدين وغيرهم - حسب مبادئ وأسس وقواعد وضعها له منهج الإسلام؛ مأخوذة من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

والأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم والمسامحة، ولا يغير العلاقة السلمية إلا ما يطرأ عليها من اعتداء غير المسلمين على نحو مباشر أو غير مباشر على حرية الدعوة، أو على أحد المسلمين فوق أي شبر من الوطن الإسلامي. أما علاقة المسامحة فثابتة تحت أي ظرف من الظروف، وهي ترتكز على عدم إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام بأي وجه من الوجوه، مع وجوب عرضه عليهم دعوة وتبليغًا، وتمكينهم من ممارسة تعاليم دينهم، وعدم سب ما يعبدون على أن لا يمسوا بالشعور العام.

كما يلتزم المسلمون في علاقاتهم الإنسانية بغيرهم بالمبادئ الخلقية الثابتة الواضحة، وأهمها التكريم، والرحمة، والمحبة، والعدل، والمساواة، والمعاملة بالمثل، والتمسك بالفضيلة، والحرية، والتسامح، والتعاون، والوفاء.

ويوجب الإسلام على المسلمين تقديم ما يدعم حسن المعاملة والمعايشة مع غيرهم من الصلة والعطاء المالي والمعنوي، كما يرغبهم في قبول هداياهم من الأشياء المباحة، وجواز الاستعانة بهم فيما يعود بالنفع على الطرفين، خاصة أهل الكتاب لقربهم من الأسس الإيمانية الصحيحة، وبالتالي إلى قلوب المسلمين.

وفي هذا الكتاب يتحدث فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة عن قواعد وأسس التعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن؛ بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه؛ بما يضمن تفاعلهم مع الآخر، وتواصلهم معه دون تفريط في الثوابت الإسلامية.

ISBN 978-977-455-940-2
9 789774 559402
دار الفاروق للاستثمارات الثقافية